نظرية الكمون والظهور عند النظام والآثار المترتبة عليها

أ.د/الشحات عبد المعطي عبد السلام عقل

قسم العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

جامعة الأزهر

نظرية الكمون والظهور عند النظام والآثار المترتبة عليها

الشحات عبد المعطي عبد السلام عقل
قسم العقيدة والفلسفة – كية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق – جامعة الأزهر . مصر
البريد الكتروني / drgomah1970@gmail.com

الملخص :
إن نظرية الكمون والظهور باعتبارها موضوعاً للبحث لابد فيها من توضيح لفظ الكمون ، وقد تبين أنه بمعنى الاستتار فى مقابلة لفظ الظهور الذي يعني البروز والانكشاف والقول بالكمون والظهور يعد من النظريات التى تمتد جذورها إلى الفلسفة اليونانية باعتبارها مصدراً لهذه النظرية وتربتها الخصبة ، وهذا يعني أن إبراهيم النظام اعتمد على الفلسفة اليونانية فى تبينه لهذه النظرية ، ذلك أنها نظرية لم يكن لها من مصدر فى الفكر الإسلامي ، فلم يرد بها نص مقدس ، ولم يقل بها أحد من علماء الإسلام السابقين على عصر النظام ، وقد كان مفهوم الكمون والظهور عند النظام ، أن الله تعالى خلق العالم دفعة واحدة ، وأن خلق آدم عليه السلام . من حيث الميلاد ، وقد دفع النظام للأخذ بهذه النظرية فيما يرى بعض العلماء هو ما ساد عصره من نزعات إلحادية متباينة فى تفسير نشأة العالم فراح النظام يؤكد لهم أن الله تعالى خلق العالم كله دفعه واحدة ، وأن خلق آدم عليه السلام لا يتقدم خلق أبنائه ، مما يترتب عليه أن يكون عمر الطفل كعمر أبيه وجده بل كعمر آدم . عليه السلام . من حيث الميلاد ، وقد دفع النظام للأخذ بهذه النظرية فيما يرى بعض العلماء هو ام ساد عصره من نزعات إلحادية متباينة فى تفسير نشأة العالم فراح النظام يؤكد لهم أن الله تعالى خلق العالم كله دفعة واحدة كامناً بعضه فى بعض ثم يكون ظهروه ضروريا كل حسب دوره ، وقد ترتب على القول بالكمون والظهور آثار عدة تختلف مع الفكر الإسلامي ، وتتعارض عن نصوصه ، فقد نص القرآن الكريم والسنة النبوية أن الله يخلق الأشياء بشكل مستمر بمحض اختياره تعالى كلما أراد أن يخلق شيئاً قال له كن فيكون ، كما أن الله تعالى قد خلق أشياءً قبل أشياء ، وهذا ما اجتمع عليه سلف الأمة ، ومن الأمور الباطلة التى تستلزمها نظرية الكمون هو التداخل بين الجواهر الذي يؤدي بدوره إلى الاتحاد وخفى الامتيازات بين الأجسام المتداخلة ، كما أن القول بالكمون يستلزم اجتماع الأضداد وهو أمر ظاهر الاستحالة ، وقد تمخض هذا البحث عن بعض النتائج أهمها : أنها تتعارض مع صريح النصوص الإسلامية التى تصرح بأن الله أوجد الأشياء بطريق الخلق من العدم ، أنها نظرية دخيلة على الفكر الإسلامي ، أن النظام أول من قال بالكمون فى الفكر الإسلامي .

الكَلِمَاتُ المِفتَاحِيَّةُ :كمون . ظهور . طفرة . النظام . تداخل . تضاد . أنكساجوراس . الرواقيون.

The theory of latency and emergence at the system and its implications

Shahat Abdel Muti Abdel Salam Akl
Department of Creed and Philosophy - Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys - Desouk - Al-Azhar University - Egypt
E-mail / drgomah1970@gmail.com

Abstract:
The theory of latency and emergence as a subject of research in which the term latency must be clarified. The system relied on Greek philosophy in explaining this theory, because it was a theory that had no source in Islamic thought, so no sacred text was mentioned in it, and none of the scholars of Islam who preceded the era of the system said about it. The Almighty created the world at once, and that Adam, peace be upon him, was created in terms of birth, and the system was prompted to adopt this theory, according to what some scholars see as what prevailed in his era of differing atheistic tendencies in explaining the emergence of the world, so the system assures them that God Almighty created the whole world at once. And that the creation of Adam, peace be upon him, does not precede the creation of his children, which entails that the age of the child be the same as the age of his father and grandfather, but rather like the age of Adam, peace be upon him, in terms of birth. His era of differing atheistic tendencies in explaining the emergence of the world, the system began to assure them that God Almighty created the whole world at once, latent in one another, and then its appearance would be necessary, each according to his role. The Noble Qur'an and the Prophetic Sunnah have stated that God creates things continuously by His will, whenever He wants to create something, He says to him, "Be," and it is, just as God Almighty created things before things. It is the overlap between the essences, which in turn leads to the union and the concealment of privileges between the overlapping bodies, and the saying of latency necessitates the meeting of opposites, which is a matter of apparent impossibility. Out of nowhere, it is a theory alien to Islamic thought, that the system was the first to say latency in Islamic thought.

Keywords: latency, emergence, mutation, order, interference, antagonism, anaxagoras, Stoics.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلق الله أجمعين وعلى آله وأصحابه ومن بتعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ،،،

فمن فضل الله تعالى وتوفيقه أن ألهمني لبحث موضوع الكمون والظهور عند النَّظَّام ، وشرح صدري لدراسته ، فنظرية الكمون والظهور من النظريات التي ترجع إلي الفلسفة الطبيعية هذا بالإضافة إلي الجانب العقدي المترتب عليها ، وقد كان لهذه النظرية دور مهم في الفلسفة اليونانية بصفة عامة وفكر النّظّام بشكل خاص وقد كان هدفي من هذا البحث هو بيان كيف استطاع النّظّام أن يتعامل مع هذه النظرية في ضوء العقيدة الإسلامية.

وكان من أسباب اختياري لهذا الموضوع :

– جديته وخطورة مباحثه

– التحذير من الانسياق خلف الفلاسفة[١] حتى لا نقع فى الضلال أو نتبنى عقيدة مخالفة لدين الإسلام .

وقد جاء البحث بعنوان

(نظرية الكمون والظهور عند النَّظَّام والآثار المترتبة عليها)

ويتكون هذا البحث من مقدمة ، تمهيد ، ثلاثة فصول

– **أما المقدمة :** فذكرت فيها أهمية البحث وسبب اختياره

– **وأما التمهيد :** فقد ذكرت فيه مفهوم كلمة (كمون) ،ومفهوم كلمة(ظهور) فى المصطلحات اللغوية ، والمعاجم الفلسفية .

– **وأما الفصل الأول :** وهو بعنوان : الجذور الفلسفية لنظرية الكمون والظهور . وفيه مبحثان:

(١) يقصد بالفلاسفة ، فلاسفة اليونان الطبيعيين أمثال أنكساجوراس والفلاسفة الرواقيين

المبحث الأول : نظرية الكمون والظهور عند أنكساجوراس .

المبحث الثاني : نظرية الكمون والظهور عند الرواقيين

– **والفصل الثاني** : بعنوان : نظرية الكمون والظهور عند النَّظَّام . وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مفهوم الكمون والظهور عند النظام

المبحث الثاني : الأسباب التى دفعت النَّظَّام للأخذ بنظرية الكمون والظهور .

المبحث الثالث : المصادر التى أحذ عنها النَّظَّام نظرية الكمون والظهور .

– **وأما الفصل الثالث** : فهو بعنوان : الآثار المترتبة على نظرية الكمون والظهور . وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : تعارض نظرية الكمون والظهور مع صريح القرآن والسنة .

المبحث الثاني : مخالفة نظرية الكمون والظهور لما اجتمع عليه سلف الأمة .

المبحث الثالث : استلزام نظرية الكمون والظهور للتداخل بين الأجسام .

المبحث الرابع : استلزام نظرية الكمون والظهور للجمع بين المتضادين.

المبحث الخامس : تعارض نظرية الكمون مع الأخذ بالأسباب .

تمهيـــد

مفهوم الكمون في اللغة :

وردت كلمة كُمُون بضم الكاف والميم في كتب المعاجم بمعنى الاختفاء والاستتار .

ففي كتاب العين :

" كَمَنَ فلان يَكْمُنُ كُمُوناً أى اختفى فى مكمن لا يُفْطَنُ له " (١).

وفي كتاب الصحاح :

كَمَنَ يَكْمُنُ كُمُوناً : اختفى ، ومنه الكمين فى الحرب وناقة كَمُون أى كتوم للِّقاح ، وهي التى إذا لقحتْ لم تُشلْ بذنبها ، وحزنُ مُكْتَمِنُ فى القلب : مُخْتَفٍ " (٢).

وفي مجمل اللغة :

كمن الشئ كموناً كأنه استخفى ، والكمين في الحرب من ذاك ، وناقة كمون ، أي كتوم للقاح ، وهي التى إذا لقحت لم تشل بذنبها "(٣).

كذلك جاء فى المحكم :

" وكل شئ استتر بشئ : فقد كمن فيه كموناً ، والكمين فى الحرب الذين يكمنون، وأمر فيه كمين : أي دغل لا يفطن له " (٤).

تفيد هذه النصوص أن معنى لفظة الكمون بضم الكاف والميم عند علماء اللغة هو : الاستتار ، وعدم الظهور .

---

(١) كتاب العين / أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي البصري ت : ١٧٠ هـ . ٥ / ٣٨٦ . تحقيق : د / مهدي المخزومي ، د / إبراهيم السمرائي ، الناشر : دار ومكتبة الهلال .

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية / أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ت : ٢٩٢ هـ . ٦ / ٢١٨٨ . تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الناشر : دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الرابعة . ١٤٠٧ هـ . ١٩٨٧م.

(٣) مجمل اللغة / أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي المتوفى ٢٩٥ ، دارسة وتحقيق / زهير عبد المحسن سلطان ، الناشر : مؤسسة الرسالة : بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ . ١٩٨٦م .

(٤) المحكم والمحيط الأعظم / أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده المرسي المتوفى : ٤٥٨ هـ . تحقيق : عبد الحميد هنداوى . الناشر : دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٢١ هـ . ٢٠٠٠م .

معنى كلمة كمون في المعاجم الفلسفية :

لا يختلف معنى كلمة الكمون في المعاجم الفلسفية عن معناه في المعاجم اللغوية حيث يدور مفهوم الكلمة حول معنى الاستتار والتخفي ، والتداخل يقول جميل صليبا :

" الكمون صفة ما هو كامن وهو مرادف للبطون ، ويقابله التعالي ..

ومبدأ الكمون هو القول : أن الكل داخل في الكل ، فإن طبقت هذا المبدأ العام فى المجال الانطولوجي . الوجودي . دل على أن جميع عناصر الوجود تتضمن بعضها بعضاً ، ولا تؤلف إلا حقيقة واحدة ، ويعد تطبيق مبدأ الكمون على هذه الصورة مقدمة من مقدمات مذهب وحدة الوجود أو نتيجة من نتائجه "[١].

ويقول مراد وهبة عن نظرية الكمون :

ومفادها أن كل شئ فى كل شئ وأن الكمون إنما هو خروج الأشياء بعضها من بعض ، وأن الفاعل قد احتيج إليه فى الكمون لإخراج . الأشياء . بعضها من بعض [٢]وفى الموسوعة الفلسفية العربية : لفظة الكمون تعد صفة للشئ الكامن والكمون أي البطون ، ومن هنا فتقابل هذه اللفظة لفظة الظهور نظراً لأن الكمون من معانيه البطون والاستتار [٣].

ويقول الخوارزمي فى تعريف الكمون :

الكمون هو استتار الشئ عن الحس كالزبد الذي في اللبن قبل ظهوره، وكالدهن فى السمسم[٤].

---

(١) المعجم الفلسفي/ د . جميل صليبا . ٢ / ٢٤٤ . باختصار . الناشر : دار الكتاب اللبناني . بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢م .

(٢) المعجم الفلسفي/ مراد وهبة . ٥٢١ . الناشر: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة . ٢٠٠٧م .

(٣) الموسوعة الفلسفة العربية / رئيس التحرير معن زيادة . ١ / ٦٩٨ . الناشر : مكتبة مؤمن قريش ، ومعهد الإنماء العربي . طرابلس . ليبيا . الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

(٤) مفاتيح العلوم / محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي ت ٣٨٧ ، ١٦١ . تحقيق : إبراهيم الإبياري . الناشر : دار الكتاب العربي . بيروت .

وفي المعجم الفلسفي لجميل صليبا :

كمن الشئ فى المكان توارى واختفى ، والكامن ما ينطوي عليه باطن الشئ من صفات دائمة وله فى الاصطلاح ثلاث معان :

١- الكامن ما يلازم طبيعة الشئ ، وهو مقابل للمفارق .. ومن قبيل ذلك قولهم فى مذهب وحدة الوجود إن حقيقة الله كامنة فى العالم وقولهم : إن الله هو السبب الباطني لجميع الأشياء لا العلة المؤثرة فيها من خارج .

٢- والكامن عند " كانت "[١] ما كان غير خارج عن حدود التجربة ، فالمبادئ الكامنة هي المبادئ التى ينحصر تطبيقها فى حدود التجربة الممكنة .

٣- والكامن هو الفعل أو السبب الذي ينحصر تأثيره فى الفاعل نفسه ، كالشعور والعقل والإرادة ، فإن تأثيرها إذا انحصر فى نفس الفاعل ، ولم يحدث تغيراً فى الخارج سمى بالتأثير الكامن ، بخلاف الفعل المتعدي الذي ينتقل تأثيره إلى الخارج كإضرام النار وقطع الخشب وتفجير الماء .. ألخ [٢].

يظهر مما سبق أن مفهوم الكمون فى اصطلاح الفلاسفة لا يختلف من معناه اللغوي حيث يدور معنى الكلمة لدى اللغويين ولدى الفلاسفة حول التخفي والاستتار .

---

(١) كانت : أو كانط : عمانويل ، فليسوف ألمانى ، ولد ومات فى كونيغسبرغ (بروسيا الشرقية) (٢٢ نسيان ١٧٢٤ . ١٢ شباط ١٨٠٤) من أسرة من البورجوازية الصغيرة . يرجع أصلها فيما يبدو إلى اسكتلندا [معجم الفلاسفة / جورج طرابيشي . ٥١٣] .

(٢) انظر المعجم الفلسفي / جميل صليبا . ٢ / ٢٢٢ ، ٢٢٣ . باختصار .

مفهوم الظهور فى اللغة :

أما كلمة " ظهور" فتدور مادتها فى معاجم اللغة حول معنى : البروز والانكشاف وعدم الخفاء .

ففى مقاييس اللغة :

(ظهر) الظَّاءَ والْهَاءُ والرَّاءُ أَصْل صَحيحٌ واحدٌ يَدُلُّ على قُوَّةٍ وبُرُوزٍ .

من ذلك : ظَهَرَ الشَّئْ يَظْهَرُ ظُهُوراً فهو ظَاهِر ، إذا انْكشَفَ وَبَرَزَ ولذلك سُمى وَقتُ الظُّهر والظَّهِيرة وهو أَظْهَرُ أَوْقاتِ النهار وأضْوَؤُها ، والأصْلُ فيه كله ظَهْرُ الإنسان ، وهو خلاف بَطْنه ، وهو يَجْمَعُ البُرُوزَ والقُوَّةَ .... والظُّهُوُر : الغَلَبَةُ قال الله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[١].

يقول برهان الدين الخوارزمي :

وأصل الظَّهور خِلافُ الخْفَاءِ وقَدْ يُعبَّرُ به عن الخُرُوجِ والبُرُوزِ لأنَّهُ يَرْدِفُ ذلك وَعَليه حَديث عائشة . رضى الله عنها . " كَانَ رسول الله ﷺ صلى العَصْر والشَّمْسُ فى حُجْرَتِها قَبْلَ أنْ تَظْهَرَ " [٢].

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة : ظهر الشئ : بدا واتضح بعد خفاء تبين وجوده ... ظهر الفرح على وجهه : تبين وارتسم . ظهر بمظهر لائق : بدا فى هيئته لائقة ظهر على حقيقته : انكشف أمره افتضح . ظهر للعيان :اتضح ، بدا للنظر . ظهر لى رأي فبدت لي فكرة جديدة[٣].

(١) معجم مقاييس اللغة / أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي المتوفى ٣٩٥هـ ، ٣ / ٤٧١ . باختصار . تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الناشر : دار الفكر : ١٣٩٩هـ . ١٩٧٩م .

(٢) المغرب في ترتيب المعرب / ناصر بن عبد السلام برهان الدين الخوارزمي المطرزي المتوفى : ٦١٠ هـ . ٣٠١/١ . الناشر : دار الكتاب العربي . بدون .

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة / د . أحمد مختار عبد الحميد عمر . المتوفى : ١٤٢٤ هـ . ٢ / ١٤٤١ . الناشر : عالم الكتب . الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ . ٢٠٠٨م .

وفى المعجم الوسيط : ظهر الشئ ظهوراً تبين وبرز بعد الخفاء [١].

مفهوم الظهور فى المعاجم الفلسفية :

تأتي كلمة ظهور أو كلمة ظاهر عند الفلاسفة بمعان متعددة منها : الوضوح والانكشاف ، والتحقق فى الواقع وعدم التخفي .

فكلمة ظاهر فى المعجم الفلسفي لمراد وهبة جاء بمعنى :

ما يبدو من الشئ فى مقابل ما هو عليه فى ذاته . أى ما يظهر من الشئ . والظاهر . عند الصوفية . مقابل للباطن ومنه علم الظواهر وعلم الباطن والظاهر والباطن صفتان لله تعالى لا تقالان إلا مزدوجتين كالأول والآخر ، فالظاهر دلائله والباطن ذاته [٢].

وفي المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة أن الظاهر هو :

ما انكشف واتضح معناه من غير تأمل وتفكر وضده الخفى وهو الذي لا يظهر المراد منه ولا بالطلب .. والظاهر أخيراً ما دل على معنى دلالة ظنية ضد الباطن، وظاهر التنزيل المعلوم منه بالاكتساب ... والظاهر إشارة إلى معرفتنا البديهية ، فإن الفطرة تقتضى فى كل ما نظر إليه الإنسان إنه تعالى موجود [٣]، والظاهر من الشئ ما انكشف لك منه دون دليل ، وضده الخفى والباطن ويرادفه الواضح والبديهي فظاهر النص ما تدل عليه ألفاظه من معان بديهية واضحة ، بخلاف باطن النص ، وهو ما تشتمل عليه ألفاظه من معان خفية عميقة ، ومن قبيل ذلك قول بعض الفرق : أن للقرآن ظاهراً وباطناً فأما الباطن فهو المعاني الروحية العميقة التى لا تتجلى إلا لأهل البرهان ، وأما الظاهر فهو الأمثال الحسية المضروبة لتلك المعاني ... والظاهري هو المنسوب

---

(١) المعجم الوسيط / تأليف مجمع اللغة العربية بالقاهرة [إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار] الناشر : دار الدعوة . بدون .

(٢) المعجم الفلسفي / مراد وهبة . ٣٩٩ .

(٣) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة / د : عبد المنعم الحنفي . ٥٠٣ ، باختصار . الناشر . مكتبة مدبولي ٢٠٠٠ . ٦ ميدان طلعت حرب . القاهرة . الطبعة الثالثة : ١٤٢٠ هـ . ٢٠٠٠م .

إلى الظاهر ، تقول: التعليم الظاهري ، وهو ما يصرح به للعامة ، أو ما يلقى خارج الدروس والمجالس الخاصة[١] ، والذي يظهر مما سبق أن مفهوم كلمة ظهور فى المعاجم الفلسفية هو نفس مفهومها فى المعاجم اللغوية وهو البروز والوضوح والانكشاف .

(١) انظر المعجم الفلسفي / جميل صليبا ، ٢ / ٢٩ ، ٣٠ باختصار .

الفصل الأول
الجذور الفلسفية لنظرية الكمون والظهور

إن القول بالكمون والظهور أو بخلق الكائنات كلها دفعة واحدة ثم ظهورها تباعاً لم يكن وليد الفكر الإسلامي فليس الفكر المعتزلي هو أول من قال بالكمون والظهور ، وإنما سبقه إلى ذلك فلاسفة اليونان ، فقد كانت الفلسفة اليونانية هي الأرض الخصبة والبيئة النشطة لظهور هذه النظرية وذلك لما فيها من الفلاسفة الذين اهتموا بالمسائل الطبيعية ونحوا مناحي متعددة فى تفسيرها ومن بين هؤلاء الفلاسفة " أنكساجوراس" " الفلاسفة الرواقيون " الذين اعتمدت فلسفتهم الطبيعية على القول بنظرية الكمون والظهور وسوف نكتفى فى هذا الفصل بأنكساجوراس والرواقين كأصل لنشأة نظرية الكمون والظهور لذلك فإن هذا الفصل يشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : نظرية الكمون والظهور عند أنكساجوراس .

المبحث الثاني : نظرية الكمون والظهور عند الرواقيين .

المبحث الأول

نظرية الكمون والظهور عند أنكساجوراس [١]

إن الاعتقاد بأن الأجسام قد خلقت دفعة واحدة كامنة فى شئ واحد ثم ظهرت بعد ذلك كل جسم على حدة هو ما بني عليه أنكساجوراس فلسفته فى خلق العالم .

يقول الشهرستاني : " وحكى فرفويوس [٢] عنه . أى عن أنكساجوراس . أنه قال : إن أصل الأشياء جسم واحد موضوع الكل لا نهاية له ، ولم يبين ما ذلك الجسم ، أهو من العناصر أم خارج من ذلك . أى العناصر الأربعة التراب ، والماء ، والهواء ، والنار . قال : ومنه يخرج جميع الأجسام ، والقوى الجسمانية والأنواع والأصناف ، وهو أول من قال بالكمون والظهور ، حيث قدر الأشياء كلها كامنة فى الجسم الأول ، وإنما الوجود ظهورها من ذلك الجسم نوعاً وصنفاً ومقداراً وشكلاً وتكاثفاً وتخلخلا ، كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة ، والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة ، والإنسان الكامل الصورة من النطفة المهينة ، والطير من البيض، وكل ذلك ظهور عن كمون وفعل عن قوة وصورة عن استعداد مادة ، وإنما الإبداع واحد ، ولم يكن لشئ آخر سوى ذلك الجسم الأول [٣].

---

(١) أنكساجوراس : ولد فى أقلازومانيا (أسيا الصغرى) نحو عام ٥٠٠ ق.م ، ومات فى لمسباقيوم عام ٤٢٨ أو ٤٢٧ ق.م ، أول من فسر علميا ظاهرة الكسوف والخسوف ومن أكثر فلاسفة اليونان أصالة ، ومن أكثر من تركت أفكارهم أثراً فى المستقبل لقب بـ " نوس" أى العقل ؛ لأن العقل يشغل فى مذهبه المفسر للكون مكانة راجحة [معجم الفلاسفة / جورج طربيشي . ١٠٦ باختصار . الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر ، لبنان . بيروت . الطبعة الثالثة . تموز (يوليو) ٢٠٠٦م] .

(٢) فرفوريوس : ويعرف أيضاً باسم ملكوس ، وهو اسمه الأصلي فيلسوف سورى الأصل كتب باليونانية ولد في صور عام ٢٣٣م ، ومات في روما بين ٣٠١ ، ٣٠٥ م . التلميذ الأثير لأفلاطون . كبير الأفلاطونيين المحدثين ، ومؤلف حياة أفلاطون وتصانيف أخرى كثيرة تنم عن شخصية فكرية وخلفية قوية ومن ثم نعته القديس أوغسطينوس بـ " فقيه الفلاسفة " [معجم الفلاسفة / جورج طربيشي . ٤٦٦] .

(٣) انظر الملل والنحل / أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ . ٢ / ٣٧٥ بتصرف ، صحه وعلق عليه الأستاذ أحمد فهمي محمد ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان. الطبعة الثانية : ١٤١٣ هـ . ١٩٩٢م .

ويبين الدكتور / مصطفى النشار أن الفلسفة الطبيعية عند أنكساجوراس تقوم أساساً على نظرية الكمون والظهور فيقول :

" إن فلسفة الطبيعة تبدأ بافتراض مؤداه أن جميع الأشياء كانت فى البداية معاً وفى حالة فوضى ، وهو يقول فى ذلك إن الأشياء " قبل أن تنفصل كانت كلها معاً دون أن يتميز أى لون ، لأن امتزاجها كان يحول دون ذلك ، امتزاج الرطب واليابس والحار والبارد والنور والظلمة وكان فى هذا الامتزاج مقدار عظيم من الأرض ، وبذور لا نهاية لعددها ، ولا يشبه أحدها الآخر ، لأن شيئاً لا يشبه شيئاً آخر " ولكن كيف حدث الانفصال بعد هذا الامتزاج ؟!

إن المسئول عن هذا الانفصال عند أنكساجوراس مبدآن هما : البذور والعقل، أما البذور فهى التى تمثل الأصول المادية للأشياء المتنوعة سواء الأشياء الجامدة أو الكائنات الحية ، فبذور " جميع الأشياء تحتوى على أشكال من كل ضرب ، وألوان من كل نوع وأذواق لذيذة ، وأن الناس أيضاً تألفت منها وكذلك الكائنات الأخرى ذات الحياة وأن هؤلاء الناس سكنوا المدن وزرعوا الأرض كما هي حالنا ، وإن لهم كما لنا شمساً وقمراً وسائر الأجرام الأخرى ... ، إن الانفصال لم يحدث عندنا فقط ، بل فى أمكنة أخرى كذلك " [١] .

يقول د / مصطفى النشار معلقاً على هذا النص : ونلاحظ من هذا النص البديع صورة الكون كما تصوره أنكساجوراس أنه يتصوره كوناً واسعاً شاسعاً كانت بذوره كامنة فى البداية فى كل لا نهائي ثم بدأت تنفصل وكان تنوعها واختلافها اللانهائي فى الاشكال والألوان هو الذي جعلها تشكل حين انفصالها عن هذا الكل هذا التنوع الكبير فى الأشياء والكائنات المتمايزة غير المتشابهة سواء كانت جامدة أو حية [٢].

فالحالة الأصلية للطبيعة بحسب أنكساجوراس كانت مزيجاً مختلطاً

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية/ د: مصطفى النشار . ٢ / ٢٥٧ . الناشر :دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٨م .
(٢) المرجع السابق .٢ / ٢٥٧ .

من " البذور " التى ما لبثت من جراء حركة دورانية أن انفصلت بالتعاقب إلى مادة نارية ، وإلى هواء وإلى تراب وإلى كواكب ويعزو أنكساجوراس حركة الانفصال تلك لا إلى علة آلية ومادية بل إلى علة عاقلة وعلة محركة فى آن معاً هي " النوس" أى العقل . (١).

إن البذور Seeds هي إذن الأصل المادي لكل شئ بما فيها العناصر الأربعة وقد كانت هذه البذور كامنة فى الكل اللانهائي ... ولكنها فيما يرى أنكساجوراس قد انفصلت عن بعضها البعض فى مرحلة تالية ولا يزال السؤال قائماً : كيف تم الانفصال ؟! هنا يأتى دور العقل nous الذى كان افتراضاً رائعاً غير مسبوق فى الفلسفة اليونانية فالعقل هو مبدأ الانفصال كما أنه هو الذي أدخل النَّظَّام إلى العالم ، رغم أنه " لا نهائي ويحكم نفسه بنفسه ولا يمتزج بشئ ويوجد قائماً بذاته " إن هذا العقل عند أنكساجوراس يكاد يكون العقل الإلهي أو هو الإله عنده ، رغم أنه لم يصرح بذلك بوضوح " (٢).

وأنكساجوراس لأنه لا يستطيع أن يفسر الحركة العرضية بشكل آخر أدرج العقل فى مذهبه المادى إن العقل يلعب دور القوة المحركة التى تفسر العملية العالمية الخاصة بفصل الخليط ولما كان العقل هو أساس الحركة فإنه هو نفسه غير متحرك (٣).

يظهر مما سبق أن نظرية الكمون والظهور نشأت أولاً فى البيئة اليونانية ، وأن الفيلسوف اليوناني أنكساجوراس هو أول من أقام فلسفته الطبيعية على هذه النظرية لذلك فإن انكساجوراس يعد الأصل الأول للقول بهذه النظرية .

---

(١) معجم الفلاسفة / جورج طرابيشي . ١٠٦ . الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة ، تموز (يوليو) ٢٠٠٦م .

(٢) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية / د : مصطفى النشار . ٢ / ٢٥٨ باختصار .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية / وولتر ستيس ، ٩١ . ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد . الناشر : دار الثقافة للنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٨٤م .

المبحث الثاني
نظرية الكمون والظهور عند الرواقيين

لا يختلف الرواقيون عن أنكساجوراس فى الأساس الذي بنو عليه فلسفتهم الطبيعية حيث ذهبوا إلى أن الكائنات وجدت دفعة واحدة كامنة فى بذرة أساسية تحوى بداخلها كل الموجودات على اختلافها ، ثم جعلت تخرج بشكل ضرورى إلى أن تشكل العالم .

يقول الأستاذ يوسف كرم مبيناً رأى الرواقيين فى خلق العالم :

" كان الجسم عندهم مركباً من مبدأين هما مادة ونَفَس حار يتحد بالمادة ويتوتر فيستبقى أجزاءها متماسكة وانقسام المادة إلى غير نهاية يسمح للنَفَس الحار أن يتحد بها تمامَ الاتحاد؛ أي أنْ ينتشر فيها كلها انتشارَ البخورِ في الهواء والخمر في الماء بحيث يؤلفان «مزيجًا كليًّا» (١)

وحكم العالم بأجمعه حكم أي جسم، فالعالم حي له نَفَس حار هو نفس عاقلة تربط أجزاءه وتؤلف منها كلا متماسكًا، فالحرارة أو النار هي المبدأ الفاعل، والمادة المبدأ المنفعل، كانت النار في الخلاء اللامتناهي ولم يكن عداها شيء، وتوترت فتحوَّلت هواءً، وتوتر الهواء فتحول ماءً، وتوتر الماء فتحول ترابًا، وانتشر في الماء نفَس حار ولَّد فيه «بذرة مركزية» هي قانون العالم «لوغوس» بمعنى أنها تحوي جميع الأجسام وجميع بذور الأحياء منطوية بعضها على بعض أو كامنة بعضها في بعض بحيث إن كل حي فهو «مزيج كلي» من ذريته جمعاء، فانتظم العالم بجميع أجزائه دفعة واحدة وأخذت الموجودات تخرج من كمونها شيئًا فشيئًا وما تزال تخرج بقانون ضروري أو «قدر « ليس فيه مجال للاتفاق، وإن نظام الطبيعة ليدل على أنها ليست وليدة الاتفاق ولا الضرورة العمياء بل الضرورة

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية / يوسف كرم ، ٣٠٣ ، الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٣٥٥هـ . ١٩٣٦م .

العاقلة [١].

نستنتج من ذلك أن الرواقيين لم يقولوا بالخلق المستمر ، وإنما قالوا بخلق الأجسام دفعة واحدة كامنة فى بذرة مركزية ، ثم أخذت هذه الأجسام فى الظهور وذلك بانفصالها عن هذه البذرة ، كما نستنتج مما سبق أن الوجود عند الرواقيين مادى فقط ، فما ليس بمادى ليس له وجود فالروح عندهم مادة و " الله " عندهم مادة كذلك وأن المادة التى تكون منها العالم فيما يذهب الرواقيون هي النار فالنار عندهم أساس كل .

وفي قصة الفلسفة اليونانية يقول زكي نجيب وأحمد أمين عن أساس المادة عند الرواقيين : " ثم بحثوا فى أساس المادة الذي نشأ عنه هذا العالم والذي هو أصل لكل التغيرات فتبعوا فى ذلك مذهب هرقليطس [٢] القائل بأن النار أساس كل شئ وأن كل شئ مركب من نار وقد مزجوا رأيهم المادى بالحلول فقالوا إن الله هو النار الأولى ، ونسبة الله إلى العالم كنسبة روحنا إلينا ونفس الإنسان نار كذلك وجاءت من النار الإلهية وانبثت فى الجسم كله ، وكذلك الله منبث فى فالعالم كله لأنه نفس العالم والعالم جسمه [٣].

والله هو النار الفاعلة وهي محايثة . كامنة . فى الكون لكنه فى الوقت ذاته المصدر الأول الذي خرجت منه العناصر الغليظة التى صنع منها العالم المادى وهذه العناصر الغليظة تسير من الله وهي فى نهاية المطاف تنحل فيه من جديد وهكذا فكل موجود إما أن يكون النار الأولى الله في ذاته أو الله فى حالاته المختلفة .... الله إذن هو " العقل " أو المبدأ الفعال الذي يحتوي داخل ذاته على

(١) انظر المرجع السابق : ٣٠٣ .

(٢) هرقليطس أو هراقليطس : فليسوف يوناني عاش فى أواخر القرن السادس أو فى أوائل القرن الخامس ق.م . يوم كانت مدن إيونيا فى أوج القوة على الفرس [معجم الفلاسفة / جورج طربيشي ، ٦٩٧] .

(٣) قصة الفلسفة اليونانية / زكي نجيب محمود ، وأحمد أمين . ١٧٦ ، الناشر : مؤسسة هنداوي .٢٠١٨م.

صور فعالة نشطة لجميع الأشياء التى يمكن أن توجد وهذه الصور أو الأشكال هي البذور الكامنة وهذه الأشكال النشطة الفاعلة . وإن كانت مادية . فهى " بذور " إن صح التعبير من خلال النشاط الذي تظهر به الأشياء الفردية إلى الوجود كلما تطور العالم أو قل إنها بذور تفض نفسها فى صور الأشياء الفردية [١].

وليست النار التى يتحدث عنها أصحاب الرواق هي تلك النار التى نعرفها بحواسنا وتجاربنا اليومية ؛ بل هي مبدأ ذو صورة هوائية نارية معاً هي نفس ذات قانون وذات فن خاص تعطى به للأشياء جوهرها وصورتها والنار إذن " روح فنانة " كما كان يقول " هرقليطس" بل إن شئت فقل النار هى " عقل جرثومي " أو " لوغوس" يحتوي على بذور الأشياء ، أعنى هو أصل لمادة الأشياء وتصورها أصل لنشوئها وتطورها [٢] فقصة الكون . عند الرواقيين . تدور على مرحلتين متناوبين فى واحدة منها يمتص الإله الأكبر . وهو النار أو القوة الفاعلة . الموجودات ويتمثلها فى ذاته ، وفى المرحلة الأخرى يحيى ويدبر عالما ذا نظام وعليه فإن العالم كما تعرفه ينتهي باحتراق كلي يعيد كل شئ إلى الجوهر الإلهي ثم يعاود الكرة من جديد تماماً كما كان من قبل بأشخاصه أنفسهم وأحداثه نفسها ؛ إنه عود أبدى دقيق [٣].

وفى الدرجة الأولى من سلم الكائنات نجد الأجسام الخام مع ذلك فإنها تتمتع بنوع من الوحدة وتحتاج إلى جهد لفصلها ... يأتي بعدها كائنات تظهر على التوالي بمظاهر مختلفة وبأبعاد متغيرة ، ومع ذلك تبقى واحدة ومتماثلة هذا

(١) انظر تاريخ الفلسفة / فردريك كوبلستون ، ١ / ٥٢٠ . باختصار . ترجمة : مام عبد التفاح إمام . الناشر : المجلي الأعلى للثقافة . شارع الجبلاية بالأوبرا . الجزيرة . القاهرة . الطبعة الأولى ٢٠٠٢م .

(٢) الفلسفة الرواقية / الدكتور عثمان أمين . ١٢٨ . الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٣٦٤ هـ . ١٩٤٥م .

(٣) تاريخ الفلسفة / إميل برهيية ٦٥/٢٠ . بتصرف ، ترجمة : جورج طرابيشي . الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت .

يعني أن صفة تسهر دائماً على تطورها وتقودها بنظام خلال المراحل المختلفة التى تتتابع حسب قاعدة ثابتة إلى هذه القدرة الفاعلة التى بفضلها تخرج النبتة من البذرة تتغذى وتكبر [١].

يتبين من ذلك أن الفلسفة الرواقية الطبيعية نحت منحى أنكساجوراس فى القول بوجود الأشياء كامنة بعضها فى بعض وأنها تظهر بعد ذلك تباعاً كل جسم على حدة ومن ثم فإن الفلسفة الرواقية هي بمثابة الأصل الثاني للقول بنظرية الكمون والظهور .

(١) رسالة فى النظام الفلسفي للرواقيين /تألف: ف . أجرو . ٦٣ ترجمة : د / يوسف هوايني ، مراجعة : د / على حميدة . الناشر : الفرات للنشر والتوزيع . بيروت . لبنان .

الفصل الثاني

نظرية الكمون والظهور عند النظّام[1]

يتناول هذا الفصل مفهوم نظرية الكمون وبيان معناها عند النَّظَّام أي كيف فسرها النَّظَّام وشرحها بما يتوافق بزعمه . مع العقيدة الإسلامية ، وما هي الأسباب التى دفعت النَّظَّام للقول بهذه النظرية والأخذ بها ، ثم هل كانت هناك مصادر أجنبية اعتمد عليها النَّظَّام فى الأخذ بهذه النظرية والعمل بها ، أى هل تأثر بغيره فى القول بالكمون والظهور ، أم أن ذلك كان نتاجاً لفكره المتميز وثمرة لثقافته الواسعة .

ويشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مفهوم الكمون والظهور عند النَّظَّام

المبحث الثاني : الأسباب التي دفعت النَّظَّام للأخذ بنظرية الكمون والظهور .

المبحث الثالث : المصادر التي أخذ عنها النَّظَّام نظرية الكمون والظهور .

---

(١) النَّظَّام : (... . ٢٣١هـ = ... ٨٤٥م) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري أبو اسحاق النَّظَّام : من أئمة المعتزلة ... تبحر فى علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين ، وانفرد بآراء خاصة تابعه فيها فرقة من المعتزلة سميت " النظَّامية " نسبة إليه ، وبين هذه الفرقة وغيرها مناقشات طويلة ، وقد ألفت كتب خاصة للرد على النَّظَّام وفيها تكفير له ، وتضليل . أما شهرته بالنظَّام فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز فى سوق البصرة ، وفى كتاب " الفرق بين الفرق " أن النَّظَّام عاشر فى زمان شبابه قوماً من الثنوية والسمنية وخالط ملاحدة الفلاسفة وأخذ عن الجميع [انظر الأعلام / خير الدين الزركلي ، ١ / ٤٣ باختصار ، الناشر : دار العلم للملايين مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر . شارع مار إلياس . بناية متكو . الطابق الثاني . بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة . أيار مايو ٢٠٠٢] .

المبحث الأول
مفهوم الكمون والظهور عند النظام

يرى النَّظَّام فى تفسيره لنظرية الكمون والظهور أن الله تعالى خلق الموجودات كلها فى وقت واحد كامنة بعضها فى بعض ، وأما تقدم بعضها على الآخر وتأخر بعضها عن بعض إنما هو فى ظهورها ، وليس فى خلقها من العدم يقول الشهرستاني عن مفهوم الكمون والظهور لدى النَّظَّام :

من مذهبه . أى مذهب النَّظَّام . أن الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن معادن ونباتاً وحيواناً وإنساناً ولم يتقدم خلق آدم عليه السلام خلق أولاده غير أن الله تعالى أكمن بعضها فى بعض فالتقدم والتأخر إنما يقع فى ظهورها من مكامنها دون حدوثها ووجودها(١).

ويقول البغدادي عن مذهب النَّظَّام فى الكمون والظهور ناعتاً قوله بالفضيحة : من فضائحه : قوله بأن الله تعالى خلق الناس والبهائم ، وسائر الحيوان وأصناف النبات والجواهر المعدنية كلها فى وقت واحد ، وأن خلق آدم عليه السلام لم يتقدم على خلق أولاده ولا تقدم خلق الأمهات على خلق الأولاد : وزعم أن الله تعالى خلق ذلك أجمع فى وقت واحد غير أن أكثر الأشياء بعضها فى بعض فالتقدم والتأخر إنما يقع فى ظهورها من مكامنها (٢).

(١) الملل والنحل / للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ . ١ / ٥٠ صححه وعلق عليه الأستاذ أحمد فهمي محمد ، الناشر : دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . الطبعة الثانية : ١٤١٣ هـ . ١٩٩٢م .

(٢) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم / أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ . ٨٦ . تصحيح : العلامة : محمد زاهد بن الحسن الكوثري . الناشر : مكتب نشر الثقافة الإسلامية من أقدم عصورها إلى الآن ١٣٦٧ هـ . ١٩٤٨م .

ويقول أبو الحسن الأشعري مبيناً معنى الماكمنة عند النَّظَّام :

واختلف الناس فى المداخلة والمكامنة والمجاورة فقال إبراهيم النَّظَّام " : إن كل شئ قد يداخل ضده وخلافه فالضد هو الممانع المفاسد لغيره مثل الحلاوة والمرارة والحر والبرد والخلاف مثل الحلاوة والبرودة والحموضة والبرد [١] وزعم أن الخفيف قد يداخل الثقيل ورب خفيف أقل كيلاً من ثقيل وأكثر قوة منه فإذا داخله شغله يعني أن القليل الكيل الكثير القوة يشغل الكثير الكيل الثقيل القوة ، وزعم أن اللون يداخل الطعم والرائحة ، وأنها أجسام ، ومعنى المداخلة : أن يكون حيز أحد الجسمين حيز الآخر ، وأن يكون أحد الشيئين فى الآخر ... وأن الزيت كامن فى الزيتون والدهن فى السمسم والنار فى الحجر [٢].

يتبين من النصوص السابقة أن مذهب النَّظَّام في الكُمُون يتعارض مع النقل والعقل أما تعارضه مع النقل فلأنه يقول بخلق الأشياء دفعة واحدة في وقت واحد بينما يصرح القرآن الكريم بان الله تعالي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام قال تعالى : (الَّذِي *خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ* وَمَا بَيْنَهُمَا فِي *سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ* الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا...) [٣]

وأما معارضته للعقل فقوله بخلق الأشياء كامنة بعضها في بعض وهذا يستلزم الجمع بين المتناقضات حيث يكمن الأبيض في الأسود والمتحرك في الساكن كما يستلزم التداخل بين الاحياز حيث يتداخل جسمان في حيز واحد.

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين / للإمام أبي الحسن على بن اسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٣٠ هـ ، تقديم وكتابة حواشي : الأستاذ نعيم زرزور . الناشر : شركة أبناء شريف الأنصارى للطباعة والنشر والتوزيع . صيدا ، بيروت . لبنان ، ٢٠٠٩ م . ١٤٣٠هـ .

(٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين ، ٢ / ٢٥٠ ، ٢٥١ باختصار .

(٣) سورة الفرقان آية ٤٩

وجاء فى كتاب العقل والنقل عند ابن رشد :

"أما طفرة النظام: فهي (انزلاقة) انفرد بها النَّظَّام المعتزلي دون سائر المعتزلة وهي القول بأن الله خلق هذه الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن، من نبات وحيوان وجبال وبحار، ولم يتقدم خلق آدم على ذريته غير أن الله (أكمن) بعضها في بعض، فالتقدم والتأخر إنما يقع في ظهور هذه الموجودات في أماكنها دون حدوثها ووجودها " (١).

وفى الموسوعة الفلسفية العربية : "أن مذهب الكمون ينسب فى الإسلام إلى إبراهيم بن سيار النَّظَّام المتكلم المعتزلي الذي جعل من مسألة الكمون النقطة الرئيسية لمذهبه فى المباحث الطبيعية فهو يقول بكمون بعض الأشياء فى بعض وأن العالم يتألف من أشياء متضادة وأن أجزاءه أيضاً تتألف من أركان مختلفة بطبعها وبعضها كامن فى بعض وعلى هذا يكون الجوهر مؤلفاً من أعراض اجتمعت وأن العالم خلق دفعة واحدة على ما هو عليه من معادن ونبات وحيوان وإنسان ولم يتقدم خلق آدم عليه السلام خلق أولاده غير أن الله تعالى أكمن بعضها فى بعض وكل ما هنالك هو أن المتأخر منه فى الزمان كامن فى المتقدم فالتقدم والتأخر إنما يقع فى ظهورها من مكامنها دون خلقها واختراعها وعلى هذا يكون كل شئ فى كل شئ ، ويعتبر الكون خروج الأشياء بعضها من بعض "(٢).

ويرى الخياط المعتزلي أن فكرة الكمون والظهور المنسوبة للنظام هي من افتراءات ابن الرواندي (٣)على إبراهيم النَّظَّام وعلى المعتزلة حيث حكى عن ابن الرواندي أنه قال عن النَّظَّام :" وكان يزعم أن الله خلق الناس والبهائم والحيوان

(١) العقل والنقل عند ابن رشد / للدكتور : محمد أمان بن على الجامي ، ٥٢ ، ٥٣ . الناشر : مركز شئون الدعوة . المدينة المنورة . المملكة العربية السعودية . الطبعة الثالثة . ١٤٠٤ هـ .

(٢) انظر الموسوعة الفلسفية العربية / رئيس التحرير د / معن زيادة . ١ / ٦٩٩ .

(٣) ابن الرواندي : أبو الحسين بن يحيى متكلم كان من المعتزلة ثم نبذ تعليمهم وصار من العجبرة ، توفى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م ، ولد فى رواند بأصبهان ونشأ فى بغداد تطرف فى الكلام حتى ارتد وألحد كما قيل تنسب إليه الرواندية وهى فرقة متطرفة من المتكلمين من مؤلفاته : الزمرد ، التاج ، الدامغ ، وأهما إطلاقاً فضيحة المعتزلة [معجم الفلاسفة / جورج طرابيشي . ٢٣] .

والجماد والنبات فى وقت واحد وأنه لم يتقدم خلق آدم خلق ولده ولا خلق الأمهات خلق أولادهن غير أن الله أكمن بعض الأشياء فى بعض فالتقدم والتأخر إنما يقع فى ظهورها من أمكانها دون خلقها واختراعها ... وهذا كذب على إبراهيم والمعروف من قول ابراهيم إن الله جل ذكره كان يقدر أن يخلق أمثال الدنيا وأمثال أمثالها لا إلى غاية أو نهاية وكان مع قوله إن الله خلق الدنيا جملة يزعم أن آيات الأنبياء عليهم السلام لم يخلقها الله إلا فى وقت ما أظهرها على أيدي رسله . هذه قوله المعروف المشهور

عند أهل الكلام "[١]. والخياط رغم أنه يبرئ النَّظَّام من القول بالكمون على النحو الذي نسبه إليه ابن الرواندي إلا أنه يقرر أن النَّظَّام قال بأن الله خلق الدنيا جملة ، وكلمة جملة تعنى كما ورد فى المعاجم خلق الكائنات كلها دفعة واحدة ففى مجمع بحار الأنوار : "أجملت الحساب إذا جمعت أحاده وكملت أفراده ، أى أحصوا فلا يُزاد فيهم ولا ينقص[٢] ومنه قوله تعالى : " وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة " [٣] أى كل القرآن دفعة واحدة وليس على فترات متعددة وهذا يعني أن النَّظَّام قال بالكمون .

ويقول الدكتور أبو ريدة معلقاً على كلام الشهرستاني والبغدادي:

"ويكاد يكون كلام كل من الشهرستاني والبغدادي عين ما يقوله ابن الرواندي على النَّظَّام ، والشبه أقوى بين كلام البغدادي وكلام ابن الرواندي ؛ والراجح أن

(١) انظر : الانتصار والرد على ابن الرواندي الملحد / أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط المعتزلى ٥١ ، ٥٢ باختصار ، مع مقدمة وتحقيق وتعليق للدكتور / نيبرج . الأستاذ بجامعة أبسالة من مملكة السويد . الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٤٤ هـ . ١٩٢٥م .

(٢) مجمع بحار الأنوار / لجمال الدين محمد طاهر الكجراتي . المتوفى : ٩٨٦ هـ . ١ / ٣٩٢ . الناشر : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . الطبعة : الثالثة ، ١٢٨٧هـ . ١٩٦٧م .

(٣) سورة الفرقان : ٣٢ .

هذين الرجلين نقلا عن ابن الرواندي خصم المعتزلة وخصم النَّظَّام " [١] .

وقال الإمام الأشعري: "وكان – النَّظَّام– يقول فيما حُكي عنه أن الله سبحانه خلق الأجسام ضربة واحدة" [٢] .

ويحكي الخياط عن النَّظَّام قوله : إن الله خلق الدنيا جملة أما أن يكون النَّظَّام قد قال هذا الذي ينسبه إليه البغدادي والشهرستاني بنصه ، فهو ما أشك فيه ؛ والأشعري مع أنه عرف كتب النَّظَّام ونقل عنها ومع أنه أقدم وأوثق حجة هو والخياط ، فإنه لم يفصل لنا شيئاً فى هذا الموضوع ؛ والشبه بين ما يقوله البغدادي والشهرستاني وبين ما يقوله ابن الرواندي مما يدعوا إلى الشك فى قيمة روايتهما" [٣].

يتبين مما سبق أن الدكتور أبو ريدة لا ينكر أن يكون النَّظَّام قال بالكمون والظهور ولكنه ينفى أن يكون النَّظَّام قال بالكمون والظهور على النحو الذي حكاه الشهرستاني والبغدادي معللاً ذلك بأنهما ربما أخذا قول النَّظَّام عن الكمون عن طريق ابن الرواندي خصم النَّظَّام والمعتزلة .

التحقيق فى نسبة ما ذكره ابن الرواندي ومن تبعه إلى النظام :

هذا ما ذكره ابن الرواندي عن مذهب النظام فى الكمون وتبعه فى ذلك البغدادي ، والشهرستاني . ولكن فى التحقيق فى نسبه هذه الأقوال إليه يبين الدكتور نصار أن كتب النظام الأصلية قد فقدت فيقول : " هناك مسألة لابد من الإشارة إليها ونحن بصدد دراسة رأي " النَّظَّام" فى قضية كيفية خلق الله سبحانه

(١) إبراهيم ابن سيار النَّظَّام وآراؤه الكلامية الفلسفية / تأليف محمد عبد الهادي أبو ريدة . مدرس بكلية الآداب . بجامعة فؤاد الأول .١٤٠ . الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٦٥_١٩٤٦.

(٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين / للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفي سنة ٣٢٤هـ ٤٠٤/١ ، عني تصحيحه هلموت رُيتر . الطبعة الرابعة المنقحة . بيروت ١٤٢٦ . ٢٠٠٥ م يطلب من دار النشر كلاوس شفارتس فرلاغ برلين .

(٣) إبراهيم ابن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية . ١٤٠،١٤١ .

وتعالى للكائنات ، وهي أن كتب الرجل الأصلية قد طواها الزمان وأنها لقيت على يد خصوم المعتزلة الضياع والتلف ... ومن ثم نرى اننا ونحن بصدد تصوير رأي النظام " فى هذه القضية سنلجأ إلى ما ذكره عنه المؤرخون من أصحاب الاتجاهات المتعددة ، ونستخلص منه ما يغلب على الظن نسبته إليه ولا نملك حيال هذه القضية وما ماثلها إلا هذا الموقف[١] .

ويبين الخياط فى الانتصار أن ابن الروانديي وهو خصم لدود للنظام وللمعتزلة عموما . هو الذي حكى هذا القول عن النظام ، فقال : ثم قال . ابن الروانديي : وكان يزعم أن الله خلق الناس والبهائم.

والحيوان والجماد والنبات فى وقت واحد ، وأنه لم يتقدم خلق آدم خلق ولده ولا خلق الأمهات خلق أولادهن . غير أن الله أكمن بعض الأشياء فى بعض ، فالتقدم والتأخر إنما يقع فى ظهورها فى أماكنها دون خلقها واختراعها . ومحال عنده فى قدرة الله تعالى أن يزيد فى الخلق شيئا أو ينقص منها شيئا ، وهذا كذب على إبراهيم والمعروف من قول إبراهيم إن الله جل ذكره كان يقدر أن يخلق أمثال الدنيا وأمثال أمثالها لا إلى غاية ولا إلى نهاية ، وكان مع قوله ، إن الله خلق الدنيا جملة ، يزعم أن آيات الأنبياء عليهم السلام لم يخلقها الله إلا فى وقت ما أظهرها علي أيدي رسلة . هذا قوله المعروف المشهور عند أهل الكلام [٢] .

نستخلص مما سبق أن نسبة القول بالكمون للنظام على النحو الذي ذكره ابن الروانديي ومن تبعه فى ذلك إنما هي نسبة ظنية حيث يصعب القطع بنسبة هذا القول إليه نظرا لفقدان مؤلفاته كما أن الأصل فى نسبة هذا القول إلى النظام هو ابن الروانديي المعروف بعداوته له ، لذلك فإن التحقيق فى نسبة القول

(١) انظر الأساس القرآني في نظرية الكمون عند النظام . ٢٢ . باختصار .

(٢) انظر كتاب الانتصار والرد على ابن الروانديي الملحد . ٥١ ، ٥٢ .

بالكمون إلى النظام هو ما ذهب إليه الدكتور نصار فى الأساس القرآني لنظرية الكمون عند النظام من أنها نسبة تقوم على غلبة الظن .

كيفية استدلال النظام علي وجود نار كامنة:

ويذكر الجاحظ كيفية استدلال النَّظَّام على وجود النار كامنة فى الحطب والحجر : وزعم أبو اسحاق . النَّظَّام . أن الدليل على أن فى الحجر والعود ناراً مع اختلاف الجهات . أنه يلزم من أنكر ذلك أن يزعم أن ليس فى السمسم دهن ولا فى الزيتون زيت ومن قال ذلك لزمه أن يقول : أن ليس فى الإنسان دم وكان أبو اسحاق يزعم أن احتراق الثوب والحطب والقطن إنما هو خروج نيرات منه ، وهذا هو تأويل الاحتراق وليس أن ناراً جاءت من مكان فعملت فى الحطب ولكن النار الكامنة فى الحطب لم تكن تقوى على نفى ضدها عنها . فلما اتصلت بنار أخرى واستمدت منها قويتا جميعاً على نفى ذلك المانع . أى المانع من الاحتراق . فلما زال المانع ظهرت فعند ظهورها تجزأ الحطب وتجفف وتهافت لمكان عملها فيه ، فإحراقك للشىء إنما هو إخراجك نيرانه منه ، وكان يزعم أن حرارة الشمس إنما تحرق فى هذا العالم بإخراج نيرانها منه.

ويقول النَّظَّام عن استخراج الأشياء الكامنة كما حكى الجاحظ :

إن لكل نوع منها نوعاً من الاستخراج وضربا من العلاج فالعيدان تخرج نيرانها بالاحتكاك واللبن يخرج زبده بالمخض ... ولو أن إنساناً أراد أن يخرج القطران من الصنوبر والزفت من الأَرز لم يكن يخرج له بأن يقطع العود ويدقه ويقشره بل يوقد له ناراً بقربه فإذا أصابه الحر عرق وسال ، فى ضروب من العلاج ، ولو أن إنساناً مزج بين الفضة والذهب وسبكهما سبيكة واحدة ثم أراد أن يعزل أحدهما من صاحبه لم يمكنه ذلك بالقرض والدق ، وسبيل التفريق بينهما قريبه وسهله عند الصاغة [١].

(١) نفس المرجع : ٥ / ٥٢ ، ٥٣ باختصار .

ويقول النيسابوري : أنكر شيخنا أبو القاسم أن يكون فى الحجر والخشب نار كامنة ، وذكر ذلك فى عيون المسائل ، وقال إن النار تحرق ما لاقاها على قدر قلته وكثرته ... ولو كان فى الخشب نار كامنة لكان يجب أن تحترق الخشبة، وبعد فكان يجب إذ سحقنا الخشب أن تظهر تلك النار ، وكان يجب أن بسحق الحجر وتفتته أن تظهر النار [١].

يتبين من هذا أن من شيوخ المعتزلة من ينكر أن يكون فى الحجر أو الخشب ناراً كامنة مخالفاً بذلك ما ذهب إليه النَّظَّام ومن تبعه ، والذي أميل إليه فى هذه المسألة هو قول من أنكر وجود النار الكائنة فى الحجر أو الخشب ، وذلك لأنه لو كان فيهما نار كامنة لأحرقت الخشب ولرتفعت حرارة الحجر فلا يستطيع أحد أن يمسه ، كما أنه فى فصل الشتاء ونلمس الحجر فنراه بارداً فلو كان فيه نار كامنة لأدى ذلك إلى الجمع بين المتضادين وهو محال .

الحجة التى ساقها النَّظَّام على صحة القول بالكمون :

يرى الجاحظ أن هناك أساساً من القرآن الكريم قد اعتمد عليه النَّظَّام فى القول بالكمون فيقول فى ذلك :

قال أبو اسحاق : قال الله عز وجل عند ذكر إنعامه على عباده وامتنانه على خلقه ، فذكر ما أعانهم به من الماعون : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ ، وكيف قال " شجرتها " وليس فى تلك الشجرة شئ وجوفها وجوف الطلق [٢] فى ذلك سواء وقدرة الله على أن يخلق النار عند

(١) المسائل فى الخلاف بين البصريين والبغداديين / لأبي رشيد النيسابوري المعتزلى . ٥٦ ، ٥٧ . باختصار . تحقيق وتقديم د / معن زيادة . د / رضوان السيد . الناشر : معهد الإنماء العربي . طرابلس . الجماهيرية الليبية . الطبعة الأولى . ١٩٧٩م .

(٢) الطلق : نبت أو صمغ نبت [جمهرة اللغة / أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي . المتوفى ٣٢١ هـ . ٢ / ٩٢٢ ت تحقيق / رمزى منير بعلبكي . الناشر : دار العلم للملايين . الطبعة الأولى . ١٩٨٧م] .

مس الطلق كقدرته على أن يخلقها عند حك العود وهو تعالى وعز ، لم يرد فى هذا الموضع إلا التعجيب من اجتماع النار والماء وهل بين قولكم فى ذلك وبين من زعم أن البذر الجيد والردئ والماء العذب والمالح سواء ، وليس بينهما من الفرق إلا أن شاء الله أن يخلق عند اجتماع هذه " حبا وعنبا وقضبا وزيتوناً ونخلا "دون تلك الأضداد(١).

وقال الله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ولو كان الأمر فى ذلك على أن يخلقها ابتداء . أى النار . لم يكن بين خلقها عند أخضر الشجر وعند اليابس الهشيم فرق ولم يكن لذكر الخضرة الدالة على الرطوبة معنى (٢).

فى هذه الآيات يرى النَّظَّام حجته للقول بالكمون حيث يعتقد أن ذكر الشجر الأخضر دليل على كمون النار فيه ، إذ لو لم تكن النار كامنة فيه لما كان لذكره فائدة ، ولكان ذكره عبثاً والعبث مستحيل فى حق الله تعالى فلو كان الأمر متعلقاً بخلق النار فقط لذكرها ابتداءً دون أن يذكر الشجر الأخضر الدال على الرطوبة .

كما يبين أن كمون النار فى الشجر الأخضر ككمون البذور الجيد والبذر الردئ فى بعضها البعض وكمون الماء العذب فى الماء المالح والله تعالى هو الذي يقدر على إخراج الأضداد من بعضها فيخرج النار من الشجر والماء العذب من المالح .

ومذهب النَّظَّام فى الكمون والظهور يقابله مذهب القائلين بالخلق المستمر والإبداع من العدم .

(١) انظر كتاب الحيوان / للجاحظ : ٥ / ٩٢ .

(٢) المرجع السابق : ٥ / ٩٣ .

وفى هذا يقول ابن رشد [١]:

إن كل من أثبت سبباً فاعلاً وأثبت الكون نجدهم بالجملة انقسموا إلى مذهبين فى ذلك فى غاية التضاد وبينهما متوسطات فأما المذهبان اللذان فى هذا المعنى فى غاية التضاد فمذهب أهل الكمون والثاني مذهب أهل الإبداع والاختراع ، أما مذهب أهل الكمون فهم القائلون أن كل شئ فى كل شئ وأن الكون إنما هو خروج الأشياء بعضها من بعض وتمييز بعضها من بعض وبين أن الفاعل عند هؤلاء ليس أكثر من محرك ، وأما مذهب أهل الاختراع والابداع فهم الذين يقولون إن الفاعل هو الذي يبدع الموجود بجملته ويخترعه اختراعاً وأنه ليس من شرط فعله وجود مادة فيها يفعل بل هو المخترع للكل وهذا هو الرأي المشهور عند المتكلمين من أهل ملتنا ومن أهل ملة النصارى حتى لقد كان يحيى النحوي النصراني يعتقد أنه ليس هاهنا إمكان إلا فى الفاعل فقط [٢].

وأما الأوساط التى بين هذين الرأيين فالكون عندهم تغيراً فى الجوهر وأنه ليس يتكون عندهم شئ من لا شئ أعنى لابد فى الكون عندهم من موضوع . أى مادة يتكون منها [٣].

(١) ابن رشد : هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد فليسوف عربي ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م وتوفى في ٩ صفر ٥٩٥ هـ / ١٠ كانون الأول ١١٩٨م . في مراكش (المغرب) كان أبوه وجده من قضاة الشرع في قرطبة [معجم الفلاسفة / جورج طرابيشي : ٢٣] .

(٢) انظر تفسير ما بعد الطبيعة / ابن رشد . أبو الوليد محمد بن أحمد . ٣ / ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ . تحرير : موريس بويج . بيروت . لبنان . المطبعة الكاثوليكية ١٩٤٨م .

(٣) المرجع السابق . ٣ / ١٤٩٨ . بتصرف .

المبحث الثاني
الأسباب التى دفعت النَّظَّام للأخذ بنظرية الكمون والظهور

إن الدوافع التى حملت النَّظَّام على الأخذ بنظرية الكمون والظهور فيما يرى بعض الباحثين هي طبيعة الحياة الفكرية التى نشأ فيها وواقع الصراعات التى كانت تحدث بين أصحاب الاتجاهات الإلحادية ، فضلاً عن رغبة النَّظَّام فى ارتياد مجال الفكر الطبيعي الذي كان القول بالكمون والظهور أحد مظاهره [١]. لقد كان الفكر الإلحادي . وبخاصة لدى الدهريين [٢]. فيما يرى الدكتور نصار فى الأساس القرآني لنظرية الكمون لدى النَّظَّام . له تأثير واضح فى عصر " النَّظَّام " وقد عبر عن الخليفة الفكرية الإلحادية التى عاصرها بقوله ، " إن الدهرية قالت فى عالمنا هذا ، عدة أقاويل ، فمنهم من زعم أنه أربعة أركان حر وبرد ، ويبس وبلة وسائر الأشياء نتائج وتركيب وتوكيد وجعلوا هذه الأربعة أجساماً ، ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان أرض وهواء وماء ونار وجعلوا الحر والبرد واليبس والبلة أعراضاً لهذه الجواهر ثم قالوا : إن سائر الأرابيح والألوان ، والأصوات ثمار هذه الأربعة ، على قدر الأخلاط فى القلة والكثرة ، والرقة والكثافة [٣]، وقد صور " النَّظَّام " أيضاً مذهب الديصانية[٤] فى العالم وهو قريب جداً من مذهب الدهريين وكذلك مذهب الفلاسفة الطبيعيين الذين يرون أن الكون والفساد للأشياء ، إنما يرجع إلى فعل " المزاج " وتصويره لهذه المذاهب فرع عن معرفته العميقة بها وإدراكه الواضح لمراميها وأهدافها حتى يمكنه أن يرد عليها رد

(١) الأساس القرآني لنظرية الكمون عند النَّظَّام / أ.د/ محمد عبد الستار نصار . ٣٣

(٢) الدهريين : الدهرية تعني هذه اللفظة إنكار الله بمعنى أن لا شئ خارج الطبيعة فالطبيعة ستكفيه بنفسها مستغنية عن خالق يوجدها ... ويقول الدهريون ليس للعالم صانع [المعجم الفلسفي / مراد وهبة . ٣١٢ . باختصار] .

(٣) انظر الأساس القرآني لنظرية الكمون . ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) الديصانية: الديصانية هم : أصحاب ديصان وهم فرقة من المجوس [الحيوان للجاحظ . ٥ / ٤٦ هامش]

علمياً .. كل هذه العوامل مجتمعة هى التى جعلت " النَّظَّام " يؤثر تفسير الخلق بالظهور بعد الكمون .. والمهم فى هذا كله أن فكرة ومنطقه لم يبعداه عن عقيدته الصحيحة [١].

يتبين مما سبق أن النَّظَّام إنما دفعه إلى الأخذ بنظرية الكمون والظهور رغبته فى الرد على الفرق المختلفة ذات النزعات الإلحادية التى وجدت فى عصره والتى اختلفت مذاهبها حول كيفية خلق العالم ، فهو وإن كان قد لجأ إلي الأخذ بفكرة الكمون والظهور ، إلا أنه فعل ذلك بهدف الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد مطاعن المخالفين وبيان أن ما جاء به الإسلام في هذه القضية هو الحق الذي لا ريب فيه .

(١) الأساس القرآني لنظرية الكمون لدى النَّظَّام . ٣٤ . باختصار .

المبحث الثالث
المصادر التى أخذ عنها النَّظَّام نظرية الكمون والظهور

تبين فى الفصل الأول أن نظرية الكمون والظهور نظرية قديمة تمتد جذورها إلى الفلسفة اليونانية إذ قال بها الفيلسوف اليوناني أنكساجوراس وفلاسفة الرواقية ، فهى إذن سابقة على الفكر الإسلامي مما يجعل من الخطأ أن نقول أن النَّظَّام قد أخذها عن الفكر الإسلامي لذلك إن كثيراً من العلماء والباحثين يرون أن إبراهيم النَّظَّام قد أخذ هذه النظرية عن الفلاسفة اليونانيين أو عن غيرهم ممن سبقه إلى القول بالكمون والظهور كاليهود مثلا .

يقول الشهرستاني : " من مذهبه . أى النَّظَّام . أن الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما عليها الآن ... وإنما أخذ هذه المقالة من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة وأكثر ميله أبداً إلى تقرير مذاهب الطبيعيين منهم دون الإلهيين (١). ويقرر هوروفتز(٢) ما يقوله الشهرستاني ويذكر ما كان معروفاً بين اليهود من أن المخلوقات كلها خلقت فى اليوم الأول ، ويفترض أن هذا الرأى وغيره من أجزاء التلمود(٣) دخل بين المسلمين ؛ ولكنه يجد بين ما يقوله النَّظَّام وبين ما فى المراجع اليهودية فرقاً يدعو إلى افتراض آخر ، غير أن قول النَّظَّام فى الكمون يرجع إلى العلة البذرية عند أهل الرواق ، وهو أن الأشياء بجملتها كانت كامنة فى الجسم الأول أو العقل على هيئة بذور وأنها تظهر منه ظهوراً ضرورياً كظهور الحيوان أو النبات من البذرة ، ثم يرجع هوروفتز إلى نص آخر

(١) الملل والنحل / الشهرستاني ١ / ٥٠ باختصار .

(٢) هورفيتز :مستشرق ألماني يهودي ولد في لاونبرج في ١٨٧٤ وتعلم في جامعة برلين ...اشتغل أمينا للنقوش الإسلامية في الحكومة الهندية البريطانية ...مات في فرنكفورت في ١٩٣١ [موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي–٦٢١–باختصار ،الناشر :دار العلم للملايين–بيروت،الطبعة الثالثة–١٩٩٣

(٣)تلمود :معناه تعلم...ويعبر عن التراث الشفهي لليهودية[المعجم الفلسفي لمراد وهبة–١١٢ باختصار]

(٤)انظر النَّظَّاموآراؤه الكلامية الفلسفية/محمد عبد الهادي أبو ريدة،الناشر ،لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة–١٣٦٥هـ–١٩٤٦م

ذكره الشهرستاني فى كلامه عن أنكساجوراس ، وقال فيه إن أنكسارجوراس أول من قال بالظهور والكمون حيث قدر الأشياء كلها كامنة فى الجسم الأول وأنها تظهر منه ، كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة والإنسان الكامل من النطفة المهنية ، وكل ذلك ظهور عن كمون وفعل عن قوة ... " (٤).

وقد جاء فى الموسوعة الفلسفية العربية أن هناك اختلافاً بين المؤرخين والباحثين فى المصدر الذي أخذ عنه النَّظَّام نظرية الكمون :

فكلام الشهرستاني يدلنا على أن النَّظَّام قد استفاد من الفلاسفة ... وقد يكون الشهرستاني قاصداً أنكساجوراس بالذات إذ الشهرستاني فى كتابه " الملل والنحل " يذكر أن أنكساجوراس أول من قال بالظهور والكمون حيث قدر الأشياء كلها كامنة فى الجسم الأول وأنها تظهر فيه مثال ذلك ظهور النخلة من النواة الصغيرة وظهور السنبلة من الحبة وظهور الإنسان من النطفة وكل ذلك يعد ظهور عن كمون وفعلاً عن قوة وصورة عن استعداد مادة والواقع أننا نجد تشابهاً بين مذهب أنكساجوراس ومذهب الكمون عند النَّظَّام ، إذ أن أنكساجوراس قد ذهب إلى القول بأنه لا يمكن إرجاع الأشياء المركبة إلى عناصر بسيطة إذ مهما يبالغ المرء فى تقسيم الأجسام فإن التقسيم ينتهي دائماً إلى أجزاء متجانسة فى الكل : العظم فى العظم واللحم فى اللحم ، وعلى ذلك فإن كل قطعة مهما صغرت تكون قابلة للتجزئة وتحوى جميع الأشكال وجميع الكيفيات(١).

وقد يكون هناك تشابه بين القول بالكمون وقول أرسطو بالقوة والفعل أو المادة والصورة على أساس أن ما يظهر إنما يعد انتقالاً من القوة إلى الفعل أو من المادة إلى الصورة ومن الباحثين من يرجع قول إبراهيم النَّظَّام بالكمون إلى

(١) انظر الموسوعة الفلسفية العربية / معن زيادة . ١ / ٦٩٩ . باختصار .

تأثره بالفلسفة الرواقية إذ أن الرواقيين قالوا بالعلة البذرية أى أن الأشياء بجملتها كانت كامنة فى الجسم الأول أو العقل على شكل بذور ، وأنها تظهر بعد ذلك ظهوراً ضرورياً كما يظهر الحيوان أو النبات من البذرة ، ومعنى هذا أن الأشياء فيما يرى الرواقيون تتطور بفعل مبدأ فيها تماماً كما تتطور النواة والله هو العقل الذي يسرى فى كل شئ ويجعله يتطور كما تتطور النواة [١].

أما هورتن[٢] فقد كتب مقالاً طويلاً فى حقيقة نظرية الكمون وأصلها والنظريات المتصلة بها فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان ومجمل رأيه أن نظرية الكمون ترجع إلى فلسفة أنكساجوراس ... والذي يعنينا هو أنه يقول إن مذهب النَّظَّام مأخوذ من ذهب أنكساجوراس وأن بينهما انطباقاً تاماً ثم يعرض نظرية الرواقيين القائلة بأن الأشياء تتطور بفعل مبدأ فيها كما تتطور النواة وأن الله هو ذاته العقل الذي يسري فى كل شئ ويجعله يتطور كما تتطور النواة وأنه هو العلة الجرثومية وهو نفس العالم وهو الذي يعطي الحياة للمادة ويحوي فى ذاته بذور كل شئ فلا يجد عند النَّظَّام أثراً من هذا كله بل يرى أن هذا يخالف رأى النَّظَّام ويرى أن النَّظَّام وأنكساجوراس يعتبران تطور الشئ عن بذرة أمراً ظاهرياً فيه تظهر الفاكهة الموجودة فى البذرة وتختفى العناصر المضادة فى الوقت نفسه فليس عند النَّظَّام تطور حقيقي بل ظهور شئ موجود بعد أن كان فى حالة كمون وهذا يمنع عند هورتن من القول بأن نظرية النَّظَّام رواقية الأصل [٣].

---

(١) المرجع السابق . ١ / ٦٩٩ .

(٢) ماكس هورتن (١٨٧٤ . ١٩٤٥م) مستشرق ألمانى عنى بالفلسفة وعلم الكلام في الإسلام فأصدر عدداً كبيراً من الدراسات والترجمات ... كتاب الفصوص للفارابي ترجمة مع اقتباسات من شرح الأمير اسماعيل الفارابي .. النظرات الفلسفية للرازي والطوسي [موسوعة المستشرقين / الدكتور عبد الرحمن بدوي . ٦١٨ . باختصار . الناشر : دار العلم للملايين . بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة ١٩٩٣م] .

(٣) انظر : ابراهيم النَّظَّام وآراؤه الكلامية الفلسفية / أبو ريدة . ١٤٢ باختصار نقلاً عن :

Max Horten, Die lehce vom kumun bei nazzam , ZDMG . 1909,114 FF.

ويستند هورتن إلى ما جاء فى النصوص–النصوص التي ذكرها الشهرستاني والبغدادي عن مفهوم الكمون لدي النَّظَّام– من أن الأشياء خلقت كلها فى وقت واحد على ما هي عليه الآن وأن الأب والأم لم يسبقا أبناءهما على أن النَّظَّام لا يقول بتطور عن بذرة بل يقول بوجود شئ كامن يظهر فيا بعد ؛ ويزيد فى اقتناعه بهذا ما يذكره ابن حزم من قول خصوم النَّظَّام تشنيعاً على مذهبه إنه كان يزعم " أن النخلة بطولها وعرضها وعظمها كامنة فى النواة وأن الإنسان بطوله وعرضه وعظمه كامن فى المنى ويرى أن هذا إنكار صريح للتطور عن بذرة وإنكار لمذهب الرواق [١].

ويرى المستشرق الأمريكي ماكدونالد[٢] فى نظرية الكمون لدى النَّظَّام محاولة أخرى من رجال الفكر المسلمين للتوفيق بين القرآن الذي يقول إن الكون خلق فى مدة معينة وبين أرسطو الذي يرى أن الكون قديم وسيبقى إلى الأبد [٣].

والذي يفهم من موقف ماكدونالد أنه يذهب إلى أن النَّظَّام قد أخذ نظرية الكمون من القرآن الكريم يهدف التوفيق بين القرآن الذي يصرح بحدوث العالم وبين رأى أرسطو الذى يذهب إلى أن العالم قديم ، وقد علق الأستاذ / زهدي جار الله على رأى ماكدونالد بقوله : ولست أدرى كيف فهم ماكدونالد قول النَّظَّام على هذا الشكل مع أنه يتضمن اعترافاً صريحاً بأن الله تعالى خلق العالم دفعة واحدة وفى وقت واحد وقد كان ماكدونالد يستطيع أن يستنتج من قول النَّظَّام هذا فى الكمون أنه قريب من نظرية النشوء والتطور الحديثة لأنه يدل على أن العالم على

(١) المرجع السابق : ١٤٣ .

(٢) ماكدونلد : (١٨٦٣ . ١٩٤٣) مستشرق أمريكي الإقامة بريطاني المولد والتنشئة ولد في جلاسجو ١٨٦٣م وتوفى في ٦ سبتمبر ١٩٤٣م ، وكان شديد التقوى المسيحية ... وأهم مؤلفاته كتابه " تطور علم الكلام والفقه والنظريات الدستورية في الإسلام ١٩٠٣ نيويورك [موسوعة المستشرقين / د . عبد الرحمن بدوي . ٥٣٨ . باختصار]

(٣) المعتزلة / زهدي جار الله : ١٢٨ بتصرف . الناشر : الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت . سنة ١٩٧٤م.

ما هو عليه الآن من الرقى والترتيب كان فى فكر الله قبل أن يخلقه وأنه تعالى خلق الموجودات وأكمن بعضها فى بعض ثم أخذ يظهرها على الترتيب الذى وضعه لها [١].

ويرى الدكتور نصار أن النَّظَّام وإن كان قد تأثر بغيره فى القول بالكمون إلا أنه قد تناول هذه الفكرة من خلال ثقافته الإسلامية وتراثه الذي أحبه واستعداده الممتاز لأن يختبر الأفكار بنفسه ، ويخرجها بمعياره وقد رأينا فيما سبق كيف ارتكز فى فهمه لهذه الفكرة على الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : " أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون " ... ولم نر من خلال بحثنا لهذه المسألة نصاً واحداً يفيد معنى يخالف أصول العقيدة الإسلامية " [٢].

ويقول الدكتور نصار فى ختام بحثه بينا أن النظام لم يتأثر بالفكر الوارد في تصويره لفكرة الكمون، " ظهر لنا مما تقدم أن فكرة " الكمون " عند النظام ليست على الصورة التي ذكرها أعداؤه: ابن الرواندي . البغدادي . الشهرستاني " كما أنها لم تكن أثراً للفكر الوارد في فهمها وتصويرها وربطها بالموقف الديني ، بل كانت من وحي النظام الناضج، وإن كان من المحتمل أن يكون للفكر الوارد أثر في التوجيه وإعادة الفهم لهذه الفكرة ، كما رأينا أن الرجل قد استغل هذه الفكرة في الرد على الدهريين والملحدين ، ولم نر من خلال بحثنا لهذه المسألة نصاً واحداً يفيد معنى يخالف أصول العقيدة الإسلامية.

من هنا نرى أن أولئك الذين وصفوه بأوصاف تنال من فكره ودينه ليسوا على حق فيما رموه به ... ويظهر أن فكرة " الكمون " قد أصبحت بعد أن أبرزها النظام بهذا الشكل ودافع عنها بهذه القوة وجعل لها أساساً من آيات القرآن الكريم

(١) المرجع السابق : ١٢٨ .

(٢) انظر الأساس القرآني لنظرية الكمون عند النَّظَّام / الأستاذ الدكتور : محمد عبد الستار نصار . أستاذ العقيدة ووكيل كلية أصول الدين بطنطا الأسبق : ٣٩ . ٤١ . بتصرف .

فكرة شيوخ المعتزلة وكبار رجالاتها ، وإن كنا نلحظ في الوقت نفسه أن تلميذه المباشر وأعني به : " الجاحظ " كان يورد أقواله بصيغة التضعيف، فيقول مثلاً : وكان أبو إسحاق يزعم أن احتراق الثوب والحطب والقطن ، إنما هو خروج نيران منه وهذا هو تأويل الاحتراق ، وليس أن ناراً جاءت من مكان فعملت في الحطب.

ويحدثنا أبو رشيد النيسابوري عن الخلاف الذي حدث بين رجالات المدرسة في هذه القضية، فيقرر أن أبا القاسم البلخي قد أنكرها ، بينما قال بها جمهور مشيخة الاعتزال، وبخاصة البصريين منهم ، مما يدل على أثر النظام الواضح في هذه القضية "[1] .

والذى أميل إليه فى هذا المقام : أن النَّظَّام وأن كان قد حاول كما ذهب الدكتور نصار أن يتناول فكرة الكمون فى ضوء الثقافة الإسلامية إلا أن هذا لا يمنع أن يكون النَّظَّام قد أخذ الفكرة ابتداء عن أصحابها فى الفلسفة اليونانية وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : أن هذه الفكرة لم تكن موجودة فى الفكر الإسلامي فلم يأت بها القرآن الكريم أو السنة النبوية ولم ترد فى كلام أوائل المسلمين من الصحابة أو التابعين فمن أين أتى بها النَّظَّام ؟ وإذا لم تكن هذه الفكرة سابقة على عصر النَّظَّام فهل كان فى مقدوره فكرياً أن ينتج مثل هذه النظرية ، وأن ينشئها إنشاءً لم يسبقه إليه أحد ؟

ثانياً : أن اطلاع النَّظَّام على كتب الفلسفة خاصة الطبيعية منها أمر أقره كثير من العلماء والباحثين الأمر الذي يرجح كون النَّظَّام قد أخذ نظرية الكمون عن الفلاسفة ثم حاول بعد ذلك أن يصيغها صياغة مختلفة .

(١) الأساس القرآني لنظرية الكون عند النظام ، ص ٤١، ٤٢ باختصار .

يقول خير الدين الزركلي عن تأثير النَّظَّام بكتب الفلسفة :

تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهين وانفرد بآراء خاصة تابعه فيها فرقة من المعتزلة سميت " النظامية " [١].

ويقول البغدادي عن النَّظَّام :

وكان فى زمان شبابه قد عاشر قوماً من الثنويه[٢] ... وخالط بعد كبره قوماً من ملحدة الفلاسفة ثم خالط هشام بن الحكم الرافضي فأخذ عن هشام وعن ملحدة الفلاسفة قوله بإبطال الجزء الذي لا يتجزأ ثم بنى عليه قوله بالطفرة [٣] الذي لم يسبق إليها وهم أحد قبله وأخذ من الثنويه قوله بأن فاعل العدل لا يقدر على فعل الجور والكذب وأخذ عن هشام بن الحكم أيضاً قوله بأن الألوان والطعوم ، والروائح ، والأصوات أجسام وبنى على هذه البدعة قوله بتداخل الأجسام فى حيز واحد ، ودون مذاهب الثنوية وشبه الملحدة فى دين الإسلام [٤].

ويخلص الباحث إلى أن : النظام وإن كان قد عاشر فى زمان شبابه قوما من الثنوية وملحدة الفلاسفة ، وهشام بن الحكم فهذا لا يعني أنه قد أخذ عنهم كما قال البغدادي ، وذلك لأن البغدادي لم ينقل عن النظام من خلال كتب النظام المنسوبة إليها نسبة صحيحة ، ومن ثم فإن الاعتماد على ما ذكره البغدادي فى

---

(١) الإعلام للزركلي : ١ / ٤٣ .

(٢) الثنوية : هم أصحاب الاثنين الأزليين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس قالوا بحدوث الظلام وذكروا سبب حدوثه ... وحكى عن قوم من الثنوية أن النور والظلمة لم يزالا حيين إلا أن النور حساس عالم والظلام جاهل أعمى [الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان القديمة والمعاصرة / إعداد مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث ٤٧٤/٢٠ . باختصار . إشراف على : حسن عبد الحفيظ أبو الخير ، الناشر : دار ابن الجوزي . القاهرة درب الأتراك . طبعة أولى : ٢٠١١] .

(٣) الطفرة : هي انتقال الجسم أو صيرورة الجسم من مكان إلى المكان الثالث دون أن يمر بالمكان الثاني ، كما زعم النَّظَّام [النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية ١٢٩ – بتصرف] .

(٤) انظر الفرق بين الفرق / للبغدادي ، ٧٩ . باختصار .

هذا الشأن قد يكون فيه جناية على النظام ، ومع ذلك فلا تنفي أن يكون النظام قد تأثر بالفلاسفة اليونانيين فى القول بالكمون والظهور .

موقف العلم الحديث من نظرية الكمون والظهور : لقد وقف العلم الحديث موقفا إيجابيا داعما لفكرة الكمون فقد جاء فى مجلة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية ما يلي :" ورغم الحياة القصيرة التي قضاها النظام بين البصرة وبغداد وسامراء ، إلا أنه وضع أفكارا هامة فى مجال فلسفة الوجود ، منها ما حققته العلوم الطبيعية الحديثة ، وما دافعت عنه فلسفات معاصرة ، منها فكرة اللانهاية فى قمة الجزء ، وفكرة تعايش الاضداد فى جسم واحد ، وفكرة المداخلة والكمون ، أي إمكانية ظهور الأشياء من بعضها البعض الآخر ... وكشهادة للتاريخ لابد من القول بأن علم الفيزياء الحديث يؤكد صحة ما ذهب إليه النظام ومن موافقه فى عدم القول بالجزء الذي لا يتجزأ ، فقد أمكن تقسيم الذرة إلى وحدات أصغر هي الالكترونات والبروتونات والنيوترونات ، وهي الأخرى قد أكن تقسيمها إى وحدات أصغر " [1]

وجاء في كتاب الانفجارات الثلاثة ما يلي :

" كان انفجار الكون رهيباً ومختلفاً عن أى انفجار آخر شهدته البشرية ، ومع أنه من المغرى أن نتخيل حدوث هذا الانفجار كما لو كان داخل شئ ما كشظايا القنابل عندما تتطاير في الهواء لكن لم يكن هناك أى شئ يتمدد داخله الكون ، وما زال الوضع قائماً وعملياً فإن الكون ليس له حدود أو حواف ، فهو يتضمن كل ما هو موجود ، ولا يوجد شئ خارجه ، وعندما خلق الكون في شكل كرة النار البدائية كان الفضاء نفسه هو الذي انفجر مع الطاقة الموجودة بداخله ،

(١) انظر مجلة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية . المجلد الأول . العدد التجريبي ٢٠١٧ ت ١٤١ ، ١٤٢ باختصار . تحت عنوان : المباحث الفزيائية في التراث الكلامي والفلسفي لعلماء الإسلام " نظرية الكمون " أنموذجا .

وما زال الفضاء يتمدد بثبات حتى اليوم في المناطق الشاسعة ما بين المجرات وهذا المنطوق المدهش أكثر من أن يكون مجرد تخمين أثناء دردشة لأنه من النتائج الطبيعية للنسبية العامة . نظرية أينشتاين . عن السرعة المتزايدة والجاذبية التى تم اختبارها جيداً عندما طبقت على تطور الكون "[١] .

ويخلص الباحث إلى أن فكر النظام لم يكن فكراً سطحياً أو ساذجاً ، وإنما كان فكراً علمياً دقيقاً ، قد أيده العلم الحديث وانتصر له حيث أثبت كما ذهب النظام صحة القول بنفي الجزء الذي لا يتجزأ ، وأن الكون قد خلق بداية كامناً في بذرة مركزية أو في شكل كرة نار ثم انفجرت فخرجت منها الأجسام تباعاً وما زال الكون يتمدد حتى الآن .

(١) انظر كتاب الانفجارات الثلاثة العظمى / تأليف فليب م.دوبر وريتشارد أ .مولر ١٦٠ . ١٦١ ، ترجمة : فتح الله الشيخ وأحمد السماحي . الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ ، الناشر : المجلس الأعلى للثقافة . شارع الجبلاية بالأوبرا . القاهرة .

الفصل الثالث
الآثار المترتبة على نظرية الكمون والظهور

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : تعارض نظرية الكمون والظهور مع صريح القرآن والسنة .

المبحث الثاني : مخالفة نظرية الكمون والظهور لما اجتمع عليه سلف الأمة .

المبحث الثالث : استلزام نظرية الكمون والظهور للتداخل بين الأجسام .

المبحث الرابع : استلزام نظرية الكمون والظهور للجمع بين المتضادين.

المبحث الخامس : تعارض نظرية الكمون مع الأخذ بالأسباب .

المبحث الأول
تعارض نظرية الكمون والظهور مع صريح القرآن والسنة

لقد صرح القرآن الكريم والسنة والنبوية أن الله تعالى إنما أوجد العالم من سماوات وأراضين وما بينهما بطريق الخلق المستمر من العدم فى ستة أيام وما مسه من تعب .

يقول تعالى ذكره :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (١)، وعن خلق الإنسان والجان يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (٢)، وعن الأطوار التى مر بها خلق الإنسان وتكوينه يقول جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (٣) .

كما ورد في السنة النبوية أن الله تعالى عبر عن إيجاده للأشياء وبلفظ الخلق من الدعم ، وليس بطريق الظهور بعد الكمون فالله تعالى إنما يوجد الأشياء التى يوجدها من إنسان أو حيوان أو غير ذلك عن طريق الخلق المستمر ، فعن خلق الإنسان والأطوار التى مر بها . روي البخارى بسنده عن النبي ﷺ قال : " إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مُضْغَةً مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله،

(١) سورة ق : آية ٣٨ .
(٢) سورة الحجر : آيات : ٢٦ . ٢٩ .
(٣) سورة المؤمنون : آيات : ١٢ . ١٤ .

ورزقه ، وأجله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح .. الحديث بطوله " [١].

وروى ابن ماجة بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : " خلق الله عز وجل يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، فجعل فى الأرض منها رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والبهائم بعضها على بعض .. الحديث بطوله .

وروى مسلم بسنده عن عبد الله عمرو بن العاص . رضى الله عنه . قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء " [٢].

نعلم مما سبق أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد صرحا بلفظ الخلق فى إيجاد الله تعالى للسموات والأرض وما بينهما ، ولم يستخدما لفظاً آخر فى هذا المعنى .

ويقول الدكتور نصار مبيناً أنه لا أحد من المفسرين قد ذكر أن الله تعالى قد أوجد الأشياء بطريق الكمون والظهور إنما أوجد الله العالم بما فيه بطريق الخلق المستمر : وقفنا أمام بعض الآيات التى يمكن أن تكون أساساً للقضية . أى الكمون والظهور . التى معنا . واستطلعنا آراء أظهر المفسرين فى فهمهما ، ولم نجد لدى واحد منهم إشارة إلى ما يمكن أن تدل عليه من أن انبثاق الأخلاف عن أصولها إنما يكون ظهوراً بعد كمون كما هو الحال لدى " النَّظَّام " ... وإنما اتفق جهودهم على أن كل طور من أطوار الخلق ، إنما يحمل خصائص وقسمات غير التى كانت موجودة من قبل ، وهذا يعني تجدد الخلق ، وتكثر المخلوقين ، ...

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة . ٤ / ١١١ . ٣٢٠٨ ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصري ، الناشر : دار طوق النجاة . الطبعة الأولى . ١٤٢٢هـ .

(٢) مختصر صحيح مسلم.كتاب الظلم باب : كتب المقادير قبل الخلق ٢ / ٤٨٦ . رقم الحديث : ١٨٣٨ تأليف : عبد العظيم بن عبد القوي زكي الدين المنذري المتوفى : ٦٥٦ هـ ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني . الناشر : المكتب الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة السادسة : ١٤٠٧ هـ. ١٩٨٧ م .

إننا لو دققنا النظر فى طبيعة عملية " الخلق " فى مجراها العادي لوجدنا أنها تقوم على " التعاقب " بمعنى : أن كل أصل يكون حاملاً لعلة وجود فرعه ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى أن يكون وجود الأخلاف عن " الأصل " قائماً فى حيز الإمكان ، أو هو وجود بالقوة كما يقول المنطقيون ، فإذا تعلقت الإرادة بإيجاده بالفعل خرج إلى الحياة إلى التحقق فى عالم الوجود والواقع ، وهنا ترتبط الموجودات كلها بسلسلة متماسكة تحفظ عليها تعاقبها فى دائرة القدرة والإرادة الإلهية (١).

نستخلص من هذا النص أن الدكتور نصار يرى أنه إذا كان جمهور المفسرين قد اتفق على أن انبثاق الأخلاف عن أصولها ليس ظهوراً عن كمون ، وإنما يحدث ذلك بطريق الخلق المتجدد المستمر ، إلا أن كل أصل يحمل فى نفسه وجود فرعه ، وهذا يعني أن الفرع كامل فى الأصل بالقوة فالفروع كامنة فى الأصول بالقوة أى أنها قابلة للانبثاق من أصولها ، فإذا تعلقت الإرادة الإلهية بإيجادها بالفعل خرجت هذه الفروع إلى الوجود والتحقق فى عالم الواقع فالقلو بالقوة والفعل قريب من القول بالكمون والظهور ، فوجود الشئ بالقوة يعني أنه كامن يحتاج إلى إرادة ترجح وجوده على عدمه ووجوده بالفعل يعني ظهوره ، وهذا لا يكون إلا بعد تخصيص الإرادة الإلهية له بالوجود الفعلي .

(١) انظر الأساس القرآني لنظرية الكمون عند النَّظَّام : ١٦٤ ، ١٦٥ باختصار .

المبحث الثاني
مخالفة نظرية الكمون والظهور لما اجتمع عليه سلف الأمة من أن الله تعالى خلق بعض الأجسام قبل بعض

تبين أثناء الكلام عن مفهوم الكمون والظهور لدى النَّظَّام أنه يذهب إلى أن الله تعالى خلق العالم كله دفعة واحدة ، أى خلق الأشياء كلها من إنسان وحيوان وجماد وغير ذلك فى وقت واحد وأن خلق آدم عليه السلام لم يتقدم خلق ذريته ، ولكن عند التحقيق فى هذا الأمر يتبين أنه يخالف ما اتفق عليه سلف الأمة واستقر رأيهم عليه من أن الله تعالى لم يخلق الأشياء كلعا دفعة واحدة ، وإنما خلق الله تعالى بعض الأجسام قبل بعض فقد ورد عن النبي ﷺ أن أول ما خلق الله هو القلم .

روى الترمذي بسنده عن النبي ﷺ أنه قال : " إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب فجرى بما هو كائن إلى الأبد " [١].

وروى أحمد بن حنبل فى مسنده عن النبي ﷺ : " إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال اكتب : فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة " [٢].

وروى البخارى بسنده عن النبي ﷺ أنه قال " كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ ، وخلق السموات والأرض " [٣].

تفيد هذه الأحاديث الشريفة أن الله تعالى لم يخلق الأشياء دفعه واحدة فى وقت واحد كما ذهب النَّظَّام ، وإنما هناك أشياء خلقت قبل أخرى ، فالقلم قد خلق

---

(١) سنن الترمذي . باب ومن سورة ن ص ٤٢٤ . الطبعة الثانية . ١٣٩٥هـ . ١٩٧٥م محمد بن عيسى بن موسى بن الضحاك الترمذي أبو عيسى المتوفى : ٢٧٩ هـ تحقيق / أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي ، وإبراهيم عطوة عوض المدرس الأزهر . الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر .

(٢) مسند أحمد بن حنبل. باب : حديث عبادة بن الصامت ٣٧ / ٣٧٨ . تحقيق / شعبة الأرنؤوط . عادل مرشد وآخرون ، الناشر : مؤسسة الرسالة . بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤٢١ هـ . ٢٠٠١م .

(٣) صحيح البخاري ،كتاب بدء الحلق باب : ما جاء فى قول الله تعالى : " وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده " ، ٤ / ١٠٥ . تحقيق / محمد زهير بن ناصر . الناشر : دار طوق النجاة ت الطبعة الأولى : ١٤٢٢ هـ .

أولاً ، وفى الأحاديث ما يدل على أن الماء والعرش ، واللوح . وهو الذكر . قد خلقها الله تعالى قبل خلق السموات والأرض ، والمراد بالذكر فى الحديث هو اللوح المحفوظ.

ويقول ابن كثير فى البداية والنهاية : " وفى حديث عمران بن حصين " كان الله ولم يكن شئ قبله وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ ثم خلق السموات والأرض " وقال الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال : " يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال : كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء "[١] ورواه عن يزيد بن هرون عن حماد ين سلمة به ولفظه : " أين كان الله قبل أن يخلق خلقه ... وأخرجه الترمذي عن أحمد بن منيع وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هرون ، وقال الترمذي حسن ، واختلف هؤلاء فى أيها خلق أولاً؟ فقال قائلون خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزي وغيرهما قال ابن جرير وبعد القلم السحاب الرقيق[١].

واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه : قال : " قال رسول الله ﷺ :" إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة " لفظ أحمد وقال الترمذي : حسن صحيح غريب ، والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره (أن العرش مخلوق قبل ذلك) وهذا هو الذي

(١) مسند أبي داود الطيالسي باب أحاديث أبي رزين العقيلي-٤١٨/٢-تحقيق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر-مصر-الطبعة الأولي-١٤١٩هـ-١٩٩٩م

(١) انظر البداية والنهاية / أبو الفدا أسماعيل بن عمر بن كثير القرشي المتوفى : ٧٧٤ هـ ١ / ٩ تحقيق : على شيري . الناشر : دار إحياء التراث العربي . الطبعة الأولى : ١٤٠٨ هـ . ١٩٨٨م .

رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير ، وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم [١] .

قال ابن جرير وقال آخرون : بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش [٢].

يستنتج مما سبق أن العرش مخلوق قبل القلم لكنه من عالم الغيب أما القلم فهو أولى المخلوقات فى عالم الدنيا .

وقد ذكر البغدادي بعد أن بين مذهب النَّظَّام فى الكمون والظهور أن فيه تكذيباً لما اجتمع عليه سلف الأمة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى من أن الله تعالى خلق اللوح والقلم قبل خلق السموات والأرض ، وإنما اختلف المسلمون فى السماء والأرض أيتها خلقت أولاً فخالف النَّظَّام المسلمين وأهل الكتاب فى ذلك وخالف فيه أكثر المعتزلة لأن المعتزلة البصرية زعمت أن الله تعالى خلق إراداته قبل مراداته ، وأقرَّ سائرهم بخلق بعض أجسام العالم قبل بعض [٣].

يفهم من النصوص السابقة أن الله تعالى قد خلق بعض الأشياء قبل بعض وأن العلماء قد اختلفوا حول أول ما خلق الله تعالى ، فذهب البعض إلى أن القلم هو أول ما خلق الله وذهب البعض الآخر إلى أنه العرش ، وذهب آخرون إلى أن الماء هو أول شئ خلقه تعالى ، والذي أميل إليه رأى من قال إن الماء هو أول

(١) انظر البداية والنهاية / ابن كثير ٩ ، ١٠ .
(٢) المرجع السابق : ١ / ١٠ .
(٣) الفرق بين الفرق : ٨٦ بتصرف .

ما خلق الله ، لأنه يستنتج من قوله وكان عرشه على الماء ، أن الماء كان مخلوقاً قبل العرش والشاهد من هذا كله أن الأشياء لم تخلق دفعه واحدة فى وقت واحد كما ذهب النَّظَّام .

المبحث الثالث
استلزام نظرية الكمون والظهور للتداخل بين الأجسام

تبين أثناء الحديث عن مفهوم الكمون لدى النَّظَّام أن الكمون يقوم أساساً على الزعم بأن كل شئ في كل شئ أى الاعتقاد أن كل شئ يشغل جزءاً من كل شئ ، أى داخل فيه جزء من كل شئ وهذا يعني أن الأجسام تتداخل بعضها فى بعض فيشغل جسم ما مكان جسم آخر أو يتداخل معه فى نفس البعد أو المكان .

ومعنى المداخلة كما يرى الإمام الأشعرى : أن يكون حيز أحد الجسمين حيز الآخر ، وأن يكون أحد الشيئين فى الآخر [١]. قال " إبراهيم النَّظَّام " : إن كل شئ قد يداخل ضده وخلافه ، فالضد هو الممانع المفاسد لغيره ، مثل الحلاوة والمرارة ، والحر والبرد والخلاف مثل الحلاوة والبرودة والحموضة والبرد وزعم أن اللون يداخل الطعم والرائحة ، وأنها أجسام [٢].

بطلان القول بالمداخلة :

وفيما يلي مناقشة القول بمداخلة الأجسام بعضها فى بعض وبيان بطلانه .

ذكر البغدادي فى الفرق أن من فضائح النَّظَّام قوله : بأن الألوان والطعوم والروائح والأصوات والخواطر أجسام ، وأنه أجاز تداخل الأجسام فى حيز واحد ، وقد رد عليه البغدادي قائلاً : بأن من أجاز مداخلة الأجسام فى حيز واحد لزمه إجازة دخول الجمل فى سم الخياط [٣] أى مرور الجمل بحجمه الضخم من ثقب الإبرة المستعملة فى خياطة الثياب ، وهذا أمر ظاهر الاستحالة.

ويقول الطوسي : التداخل محال فى الأجسام خلافاً للنظام لأنها متماثلة فلو تداخلت لارتفع الامتياز بالذاتيات واللوازم والعوارض فيفضي إلى اتحاد الاثنين ... والنظام لا يقول بتماثل الأجسام فلا يكون ذلك حجة عليه ، والمعتمد هو حكم

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ٢ / ٢٥١ .

(٢) المرجع السابق : ٢ / ٢٥٠ . باختصار.

(٣) الفرق بين الفرق : ٨٤ . باختصار .

بديهة العقل بأن الجسمين لا يجتمعان فى حيز واحد [١].

يقول ابن حزم :

" ذهب القائلون بأن الألوان أجسام إلى المداخلة ومعنى هذه اللفظة أن الجسمين يتداخلان فيكونان جميعاً فى مكان واحد ، وهذا كلام فاسد .. ذلك أن كل جسم فله مساحة وإذا كان ولا بد ، فإن جسم زيد عليه جسم آخر فإن ذلك الجسم الزائد يحتاج إلى مكان زائد من أجل مساحته الزائدة ، هذا أمر يعلم بالمشاهدة فإن اختلط الأمر على من لم يتمرن فى معرفة حدود الكلام من أجل ما يرى فى الأجسام المتخلخلة من تخلخل الأجسام المايعة لها ، فإنما هذا لأن فى خلال أجزاء تلك الأجسام المتخلخلة خروقاً صغاراً مملوءة هواء فإذا صب عليها الماء أو مائع ما ملأ تلك الخروق وخرج عنها الهواء الذي كان فيها ... فإنه إذا تم خروج الهواء عنه وزيد فى عدد المائع ربا واحتاج إلى مكان زائد وأما الذي ذكرنا قبل فإنه فى الأجسام المكتنزة كما إذا صب ماء على ماء أو دهن على دهن ، أو دهن على ماء ... وإنما تكون المداخلة بين الأعراض والأعراض ، وبين الأعراض والأجسام لأن العرض لا يشغل مكاناً فيجد اللون والطعم والرائحة والحر والبرد والسكون كل ذلك مداخل للجسم ومداخل بعضه بعضاً ، ولا يمكن أن يكون جسم واحد في ماكنين ، ولا جسمان فى مكان واحد [٢].

ويقول الآمدي فى الأبكار : لو جاز تداخل الجواهر . أي الأجسام : فإما أن يقال عند التداخل باتحاد الجواهر المتداخلة ، أو تعددها ، فإن قيل بالاتحاد : فإما أن يقال باستمرار وجود الجواهر المتداخلة ، أو بعدمها ، أو باستمرار البعض وعدم البعض فإن كان الأول : فالقول بالاتحاد مع استمرار الجواهر المتداخلة

(١) تلخيص المحصل / خواجة نصير الدين الطوسي : ٢١١ ، ٢١٢ . باختصار . الناشر : مؤسسة مطالعات إسلامي . شعبة تهران . ١٣٥٩هـ .

(٢) انظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل / لابن حزم الظاهري الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ . ٥ / ٣٨ ، ٣٩ . الناشر : مكتبة السلام العالمية . ٣٢ ش الفلكي ، قصر عابدين . القاهرة .

محال ، وإن كان الثاني : فلا تداخل ؛ بل هو فساد لما كان من الجواهر ، وكون لأمر آخر . أى تكوين لأمر آخر ، وإن كان الثالث : فلا تداخل أيضاً ؛ بل هو فساد وعدم البعض مع استمرار البعض [١].

وإن قيل بتعدد الجواهر مع تداخلها ، ووجود بعضها بحيث البعض الآخر . أي فى مكان البعض الآخر . فلو كان البعض منها أسود ، والبعض أبيض ، فإما أن نراهما ، أو نرى أحدهما دون الآخر ، أو لا نرى واحداً منهما ، فإن كان الأول : فإما أن يكون ما نراه أسود ؛ هو ما نراه أبيض ، أو أن ما نراه أبيض غير الذي نراه أسود فإن كان ما نراه أسود هو ما نراه أبيض؛ فهو محال ظاهر الإحالة ، وإن كان ما نراه أسود غير ما نراه أبيض فلا تداخل ؛ بل كل واحد بحيث نفسه وإن كان الثاني : وهو رؤية أحدهما دون الثاني فليس أحدهما أولى من الآخر ، وإن كان الثالث : وهو أنا لا نرى واحداً منهما ؛ فهو أيضاً محال وذلك لأن اللون القائم بكل واحد منهما من السواد والبياض لا ينافيه اللون القائم بالآخر ؛ ضرورة تعدد محلها ، ومع تعدد المحل فلا منافاة بين البياض [القائم بأحدهما] والسواد القائم بالآخر [٢].

وقد أنكر الناس جميعاً أن يكون جسمان فى موضع واحد فى حين واحد ... وقال أكثر أهل النظر : إنه قد يكون عرضان فى مكان واحد ، ولا يجوز كون جسمين فى مكان واحد [٣].

وذكر صاحب إرشاد الطالبين : أن التداخل يستحيل على الأجسام خلافاً للنظام ، فإنا نعلم بالضرورة أن البعدين إذا اجتمعا زادا على البعد الواحد ، والتداخل اندماج الأجزاء بحيث يصير حيزها أقل ما ينبغي لها وهو باطل ، فإنا

(١) أبكار الأفكار فى أصول الدين / للإمام سيف الدين الآمدي المتوفى سنة ٦٣١ هـ . ٣ / ٣٩ . تحقيق أحمد محمد المهدي . الناشر : دار الكتب والوثائق القومية . القاهرة ، ١٤٢٤ هـ . ٢٠٠٤م . الطبعة الثانية .

(٢) انظر المرجع السابق : ٣ / ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) مقالات الإسلاميين : ٢ / ٢٥١ . باختصار .

نعلم ضرورة أنا إذا ضممنا ذراعاً إلى ذراع آخر صارا ذراعين لا ذراعاً واحداً ، وإلا لما تميز الجزءان عن جزء واحد وهو باطل [١].

وجاء فى شرح الموافق : الجواهر يمتنع عليها التداخل ، أى دخول بعضها فى حيز بعض آخر بحيث يتحدان فى المكان والوضع ومقدار الحجم وهذا الامتناع ... لذاتها بالضرورة البديهية إذا لو جاز ذلك ، أى تداخل الجواهر ، لجاز أن يكون هذا الجسم المعين أجساماً كثيرة متداخلة ، وجاز أن يكون الذراع الواحد من الكرباس ألف ذراع ، بل جاز تداخل العالم كله فى حيز خردلة واحدة ... وقد اتفق العقلاء على امتناع التداخل ، وأما النَّظَّام فقيل أنه جوزه ، والظاهر أنه لزمه ذلك فيما صار إليه من أن الجسم المتناهي المقدار مركب من أجزاء غير متناهية العدد إذ لابد حينئذ من وقوع التداخل فيما بينها ... وإن صح أنه قال به ، كان مكابراً لمقتضى عقلة[٢].

يظهر من خلال النصوص السابقة أن التداخل الذى قال به النَّظَّام ومن تبعه يستلزم الاتحاد وهو امتزاج الأجسام بعضها فى بعض وارتفاع الامتياز بالذات بينهما فلا يعرف أحد الجسمين من الآخر وهذا باطل باتفاق علماء المسلمين فما أدى إليه وهو القول بالكمون باطل كذلك .

كما يظهر أن التداخل يترتب عليه أن يدخل الجمل فى سم الخياط الحياكة وهذا أمر ظاهر الاستحالة فما أدى إليه وهو القول بالكمون محال كذلك .

(١) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين / جمال الدين مقداد بن عبد الله السيوري المحلي : ٥٦ . ٥٧ بتصرف . تحقيق / السيد مهدي الرجائي . الناشر : منشورات مكتبة آية الله العظمى . إيران .

(٢) انظر شرح الواقف / للشريف الجرجاني ، وعليه حاشية عبد الحكيم السيالكوتي ، وحاشية حسن جلبي . ٢ / ٣١٥ باختصار . الناشر : منشورات صهيب حسن الشافعي الأشعري

المبحث الرابع
استلزام نظرية الكمون والظهور للجمع بين المتضادين

علمنا فيما سبق أن القول بالكمون يقوم أساساً على الاعتقاد إن كل شئ داخل فى كل شئ ، أى أن كل جسم داحل فى كل جسم ومعلوم أن فى الأجسام ما يتكون من عناصر متضادة ، ومتناقضة مع ما تتكون منها الأجسام الأخرى فإن فى الأجسام ما هو أبيض وما هو أسود ، وفيها ما هو رطب ، وما هو يابس ، وفيها ما هو لين وما هو صلب ، وكذلك ما هو قصير وما هو طويل إلى غير ذلك من المتضادات التى تتكون منها الأجسام ، والقول بأن هذه الأجسام بما فيها من عناصر متضادة ومتناقضة خلقت دفعة واحدة كامنة بعضها فى بعض إنما هو جمع بين المتضادات والجمع بين المتضادات باطل ففى إرشاد الطالبين :

الضدان : وهما الذاتان الوجوديتان اللتان لا تجتمعان ، وبينهما غاية التباعد ، كالسواد والبياض ... ذلك لأن تقابل الضدين أشد من تقابل السلب والإيجاب لأن ثبوت الضد يستلزم سلب الآخر[١] ، والضدان يقالان على معنيين : حقيقي ومشهوري ، أما المشهوري : فهما العرضان اللذان من جنس واحد ، فلا يجتمعان فى محل واحد فى وقت واحد ، ويمكن حصولهما فيه على التعاقب ، وقد يخلو المحل منهما ... وأما الحقيقي : فهو ما ذكرنا مع قيد آخر ، وهو : وبينهما غاية التباعد ، كما قال المصنف : هما الذاتان الوجوديتان اللذان لا يجتمعان فى محل واحد ، وبينهما غاية الخلاف كالسواد والبياض [٢].

ويقول الاسترآبادي فى البراهين القاطعة مبيناً ما بين الحرارة والبرودة من تضاد : الحرارة والبرودة كيفيتان وجوديتان بينهما غاية التباعد ؛ فهما متضادتان ولم يخالف فى هذا الحكم أحد من المحققين ، وقد ذهب قوم غير محققين إلى أن

(١) إرشاد الطالبين / للشيخ مقداد المحلي : ١٣٦ . باختصار .

(٢) المرجع السابق : ١٣٧ ، ١٣٨ باختصار وتصرف .

البرودة عدم الحرارة عما من شأنه أن يكون حاراً فيكون التقابل بينهما تقابل العدم والملكة ، وهو خطأ ؛ لأنا ندرك من الجسم البارد كيفية زائدة على الكيفية المطلقة والعدم غير مدرك ؛ فالبرودة صفة وجودية مضادة للحرارة [١].

وهذا يعني أنه من المستحيل أن تجتمع الحرارة والبرودة فى جسم واحد ، فالتضاد بينهما يمنع اجتماعهما خلافاً للنظام الذي زعم أن الحرارة والبرودة تكمنان فى عود من الخشب أو ما يشبهه .

وفى شرح المقاصد :

التضاد هو كون وجوديين لا يجتمعان ولا يتوقف تعقل كل منهام على تعقل الآخر كالبياض والسواد ، فإذا لم يكن بينهما غاية الاختلاف . كالصفرة والبياض والحمرة والسواد فليسا بضدين ، ويسمى هذا التضاد المشروط فيه غاية الاختلاف بالتضاد الحقيقي ، والذي لا يشترط فيه غاية الاختلاف يسمى بالتضاد المشهوري لاشتهاره بين الفلاسفة [٢]. ومن أحكام التضاد أن الموضوع قد لا يخلو عن أحد الضدين بعينه كالنار عن الحرارة ، أو لا بعينه كالجسم عن الحركة والسكون ... وأن الحقيقي منه . أى من التضاد . إنما يكون بين نوعين آخرين من جنس واحد كالسواد والبياض ، لا بين جنسين كالفضيلة والرذيلة ... ويلزم من هذا ألا يكون ضد الواحد إلا واحداً حتى لا يكون للسواد ضد هو البياض وآخر هو الحمرة [٣].

---

(١) البراهين القاطعة فى شرح تجديد العقائد الساطعة / محمد الاستراباذي المعروف بـ " شريعتمدار " ١ / ٣٩١ . إعداد وتحقيق / مركز الأبحاث والدراسات الإسلامي . الناشر : مؤسسة بوستان كتاب قم . مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي ، الطبعة الأولى / ١٤٢٤ هـ

(٢) شرح المقاصد / مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٣ هـ ، ٢ / ٥٩ ، هامش تحقيق د / عبد الرحمن عميرة . الناشر : منشورات الشريف الرضي . الطبعة الأولى .

(٣) شرح المقاصد / للإمام مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني المتوفى ٧٩٣ هـ . ٢ / ٦٤ ، ٦٥ باختصار . تحقيق د / عبد الرحمن عميرة . الناشر : دار عالم الكتب . لبنان . بيروت . الطبعة الثانية . ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨م .

والشاهد مما سبق أن نظرية الكمون والظهور تؤدي إلى الجمع بين المتضادات كما تبين فإن القول بأن كل شئ داخل فى كل شئ يستلزم اجتماع الأشياء المتضادة بعضها مع البعض الآخر ، وهذا أمر اتفق العلماء على بطلانه ، وإذا كان اجتماع المتضادين محال فما أدى إليه وهو القول بالكمون محال أيضاً .

المبحث الخامس
تعارض نظرية الكمون والظهور مع مبدأ الأخذ بالأسباب

إذا كان كل شئ خلق دفعة على النحو الذي هو عليه الآن فما دور الأسباب فى حياتنا وما قيمتها ؟ والحق أن هذا سؤالا ضروريا فى هذا المقام لأن قضية الأسباب من القضايا الضرورية فى الحياة ومن المبادئ الثابتة التى لا تتغير ولا تتبدل فكل مسبب فى هذه الحياة له سبب ، وكل معلول له علة فمثلاً إذا أراد إنسان أن يحظى بأطفال فأنه لا شك يشرع فى الزواج حتى تتحقق أمنيته ، لكن إذا كان كل شئ قد خلق دفعة كما زعم النَّظَّام بما فى ذلك الأطفال والكبار ، فلم نقوم بعملية الزواج أصلاً ؟

لقد اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية بقضية الأسباب نظراً لأهميتها للإنسان فى كل أمور حياته ، يقول الله تعالى لمريم عليها السلام : " وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا"(١) فى هذه الآية يبين الله تعالى أهمية مباشرة الأسباب ، وإلا فإنه سبحانه قادراً على أن يساقط الرطب على مريم . عليها السلام . دون أن تلمس النخلة .

ويقول جل وعلا : ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ (٢).

فى هذه الآية يأمرنا الله تعالى بالنكاح لأن النكاح هو السنة التى جعلها الله سبباً لبقاء النوع الإنساني . كما أن النكاح بين باقى الكائنات الحية سبب بقائها ، وفى هذا تعارض صريح مع القول بالكمون فلو كان كل شئ قد خلق بالفعل وانتهى الأمر بحسب زعم النَّظَّام فلماذا يأمرنا الله تعالى بالنكاح لإنجاب الأطفال

(١) سورة مريم : آية ٢٥ .
(٢) سورة النساء : آية ٣ .

والحفاظ على النوع .

وقد روى أبو داود فى سننه بسنده عن ابن عمر مرفوعاً أن النبي ﷺ قال : " تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة " (١).

وهذا تأكيد من النبي ﷺ وحث منه على مباشرة الأسباب التى لو أهملت لانقرض النوع الإنساني ، فلو كانت الأشياء قد خلقت ابتداءً كما زعم النَّظَّام ، فلماذا أمرنا النبي الكريم بالتناكح.

(١) المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود / محمود محمد خطاب السبكي . باب كثرة أزواج النبي ﷺ ٢ / ٢٨١ . تحقيق / أمين محمود محمد خطاب . الناشر : مطبعة الاستقامة . القاهرة ، مصر . الطبعة الأولى . ١٢٥١ هـ .

خاتمة

وفى نهاية هذا البحث أرجو أن أكون قد وفقت فى ترتيب مباحثة وشرح مسائلة ، بشكل يتيح للباحث أن يلم بهذا الموضوع ، وأن يفهم محتوياته فهما يجنبه الوقوع فى الخطأ الذي وقع فيه النَّظَّام بسبب انسياقه وراء الفلسفة اليونانية والأخذ من نظرياتها دون حذر .

كما أتمنى ان يقبل اعتذاري فيما وقع من أخطاء فى هذا البحث

وقد انتهى البحث إلى عدة نتائج أهمها :

- أن إبراهيم النَّظَّام هو أول من قال بالكمون والظهور فى الوسط الإسلامي متأثرا بالفلسفة اليونانية .
- أن القول بالكمون والظهور يتعارض مع صريح القرآن والسنة .
- أن نظرية الكمون والظهور تتعارض مع قضية الأخذ بالأسباب .
- أن نظرية الكمون والظهور ترجع نشأتها إلى الفلسفة اليونانية .
- أن نظرية الكمون والظهور تؤدي إلى الجمع بين المتضادات .
- أن التداخل بين الأجسام يؤدي إلى القول بالاتحاد وهو ظاهر الاستحالة .
- ان العلم الحديث جاء مؤيدا لما ذهب إليه النظام ومؤكد له
- أن الدكتور نصار قد انتهي في بحثه إلي أن النظام قد اعتمد علي تصويره لنظرية الكمون علي القرآن الكريم ولم يتأثر بالفكر الوارد
- أن القول بوجود نار كامنة فى الحجر مع وجود البرودة جمع بين المتضادين .
- انأن القول بالكمون يؤدي إلى مخالفة ما أجمع عليه من سلف الأمة من أن الله تعالى خلق بعض الأشياء قبل بعضها الآخر .

فهرس المصادر والمراجع

١- أبكار الأفكار فى أصول الدين / للإمام سيف الدين الآمدي . الناشر : دار الكتب والوثائق القومية . القاهرة .

٢- إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين / جمال الدين مقداد بن عبد الله المحلي . الناشر : منشورات مكتبة آية الله العظمى . إيران .

٣- الأساس القرآني لنظرية الكمون عند النَّظَّام / أ . د / محمد عبد الستار نصار . وكيل كلية أصول الدين بطنطا الأسبق.

٤- الأعلام للزركلي ، الناشر : دار العلم للملايين . بيروت . لبنان .

٥- الانتصار والرد على ابن الرواندي / أبو الحسين الخياط ، الناشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة.

٦- انظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل / لابن حزم الظاهري الأندلسي . الناشر : مكتبة السلام العالمية . القاهرة .

٧- تاريخ الفلسفة / إميل برهييه . الناشر : دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت . ترجمة : جورج طرابيشي .

٨- تاريخ الفلسفة / فريدريك كوبلستون . الناشر : المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة .

٩- تاريخ الفلسفة اليونانية / د : مصطفى النشار. الناشر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

١٠- تاريخ الفلسفة اليونانية / وولتر ستيس . الناشر : دار الثقافة للنشر والتوزيع . ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد .

١١- تاريخ الفلسفة اليونانية / يوسف كرم ، الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٢- تفسير ما بعد الطبيعة / ابن رشد . الناشر : المطبعة الكاثوليكية. بيروت . لبنان .
١٣- تلخيص المحصل / خواجة نصير الدين الطوسي . الناشر : دار الأضواء ، بيروت . لبنان.
١٤- الحيوان / أبو عمرو بن بحر الجاحظ ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر.
١٥- شرح الواقف / للجرجاني ، الناشر : منشورات صهيب حسن الشافعي الأشعري الأزهري .
١٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية / أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، الناشر : دار العلم للملايين . بيروت . لبنان .
١٧- العقل والنقل عند ابن رشد / دكتور : محمد أمان بن على الجامي ، الناشر : مركز شئون الدعوة . المدينة المنورة . المملكة العربية السعودية .
١٨- الفرق بين الفرق / أبو منصور البغدادي . الناشر : مكتب نشر الثقافة الإسلامية من أقدم عصورها إلى الآن .
١٩- الفلسفة الرواقية / د . عثمان أمين . الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة.
٢٠- قصة الفلسفة اليونانية / زكي نجيب محمود ، وأحمد أمين ، الناشر : مؤسسة هنداوي .
٢١- كتاب العين / أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي البصري ، الناشر : دار ومكتبة الهلال .
٢٢- مجمل اللغة / أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، الناشر : مؤسسة الرسالة : بيروت.

٢٣- المحكم والمحيط الأعظم / أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده المرسي. الناشر : دار الكتب العلمية . بيروت .
٢٤- المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين / لأبي رشيد النيسابوري المعتزلى . الناشر : معهد الإنماء العربي . طرابلس .
٢٥- المعتزلة / د . زهدي جار الله . الناشر : الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت . لبنان .
٢٦- المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة / د : عبد المنعم الحنفي . الناشر . مكتبة مدبولي . القاهرة . الطبعة الثالثة .
٢٧- المعجم الفلسفي / د . جميل صليبا . الناشر : دار الكتاب اللبناني . بيروت ، لبنان.
٢٨- المعجم الفلسفي / مراد وهبة ، الناشر : دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة .
٢٩- معجم اللغة العربية المعاصرة / د. أحمد مختار عبد الحميد عمر . الناشر : عالم الكتب .
٣٠- المعجم الوسيط / تأليف مجمع اللغة العربية بالقاهرة . الناشر : دار الدعوة.
٣١- المغرب في ترتيب المعرب / ناصر بن عبد السلام برهان الدين الخوارزمي . الناشر : دار الكتاب العربي .
٣٢- مفاتيح العلوم / محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي . الناشر : دار الكتاب العربي . بيروت .
٣٣- مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين / لأبي الحسن على بن اسماعيل الأشعري . الناشر : شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت . لبنان.

٣٤- الملل والنحل / للشهرستاني ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان.
٣٥- المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود / محمود محمد خطاب السبكي . الناشر : مطبعة الاستقامة . القاهرة .
٣٦- الموسوعة الفلسفة العربية / رئيس التحرير معن زيادة . الناشر : معهد الإنماء العربي . طرابلس . ليبيا .
٣٧- موسوعة المستشرقين / د . عبد الرحمن بدوي . الناشر : دار العلم للملايين . بيروت . لبنان .
٣٨- النظَّام وآراءه الكلامية الفلسفية / د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة.